كتب ثقافية

ترجمة
الشرق والغرب

شهر العسل المرّ

قصص ايطالية مختارة

ترجمة
ادوار الخراط

الكتاب السادس عشر

الجزء الأول

كتب ثقافية

ترجمة

من الشرق والغرب

شهر العسل المر

قصص ايطالية مختارة

ترجمة

ادوار الخراط

ايجنازيو سيلوني

ولد في سنة ١٩٠١ في بلدة صغيرة في جنوب ايطاليا ، وتلقى في صباه انطباعات مسيحية كان لها أفعل الأثر طوال حياته التي يهيجها أبداً نشاط سياسي لا يفتر ونشدان فكري مرتبط أبداً بالمستضعفين من الناس •

وقد أختير ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، سكرتيرا لحركة الفلاحين التي أخذت تنمو ويشتد ساعدها في بلده ، ثم أصدر جريدة اشتراكية في روما ، والتحق بالحزب الشيوعي وكان عضوا بلجنته المركزية ابتداء من سنة١٩٢٥. وهاجم الفاشيين فيجريدته ثلاث مرات، وواصل كفاحه السرى تحت الفاشية ، ثم استقال في سنة ١٩٢٩ من الحزب الشيوعي • وغادر ايطاليا لاجئا الى سويسرا حيث كتب « فونتمارا » و « الخبز والنبيذ » و « القمح تحت الثلج » وبقى فيها حتى ١٩٤٤ ، وفي أثناء الحملة الايطالية ، قبل سقوط الفاشية عاد الى ايطاليا مستخفيا ، كأحد أبطال رواياته ، في زى قسيس ريفي ، بعد أن كان قد أصبح عضوا في اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكي الايطالي في سنة ١٩٤٤ ، وعاد الى مشاركته النشطة في السياسة فعمل محررا رئيسيا بالجريدة الاشتراكية « أفانتي » ، وانتخب عضوا في الجمعية التأسيسية • وهو الآن رئيس الفرع الايطالي لجماعة « الشعر والمقالة والقصة » (القلم)

وفي كلمة من كلماته أخيرا : لا ينبغي أبدا أن نوحد بين قضية القيم الخلقية ، ولين الدولة

وهى عبارة تكشف عن جانب هام من موقفه •

من ذلك كله يتبين اهتمامه بالمصير الانساني في المجتمع المعاصر الذي يخوض غمار ثورة انسانية شاملة

وسيلونى من أول ممثلى تلك الحقبة من المفكرين الثوريين الذين حبطت آمالهم فى الربع الثانى من هذا القرن ، وتبين لهم أن أزمة الانسان المعاصر ما زالت ممتدة عميقة متغلغلة الجذور • وتنصب عنايته فى أعماله الفنية على علاقة الثورى بالرجل العادى فى حياته الشاقة المكبوتة • وقد اشتق سيلونى لنفسه ، نوعا من الفوضوية المسيحية المعذبة ، فيها استشهاد المسيحيين البدائيين واستقامتهم الخلقية النزيهة الصلبة ، وفيها تلك الصلة الحميمة الوثيقة بالمستضعفين ، فى أرضهم الممزقة الغنية بالوعود ، وفيها ثورية لا يائسة ولا مخدوعة •

ورواياته تجرى فى مستوى صوفى من الوضاءة الانسانية التى تمتد فى حنو متألم على عذابات الانسان ، وفى وجدان عميق بعواطفه الساذجة الوطيدة ، وفيها ألفة به ، ومحبة له، ولكن فيها أيضا شجاعة القديسين التى لا تؤمن ـ كما قال « بموت المسيح ولا ببعثه ، ولكنها تؤمن بعذابات احتضاره »• « فما زال الجياع والعطاش الى العدالة يعيرون ويطردون ويدأنون بالموت •• وما زلنا فى يوم الجمعة الحزينة »

والريف الايطالى فى أعماله الروائية يحيا ويستضىء، ويطرد على نسق حياته الشقية الصابرة الخشنة، ويموج بناسه وقد كشفت عنهم محبته المسيحية المعاصرة فاذا هم مصلوبون دائما ، باحثون دائما عن الطريق ، والثوريون معهم مصلوبون أيضا ، ولكنهم لا يستنيمون وما زالوا ينشدون معهم الملكوت على هذه الارض

وأيا كانت المآخذ التى يمكن أن تؤخذ على سيلونى ، من الوجهة الايدلوجية أو من حيث الموقف السياسى ، فلا يمكن أن تنكر عليه أصالته الفنية ، وعمق حسه بالعذاب والاخوة بين المضطهدين فى الارض ، وبحثه المخلص الحار عن العدالة وان تباينت الآراء فى الطريق التى تتخذ الى هذه العدالة

« العودة الى فونتمارا »

ايجنازيو سيلوني

ما أن وصلنى خطاب كاهن الابرشية حتى عقدت عزمى على الذهاب ، واخترت السفر بقطار الليل ، لاسباب شخصية ، وقد تطوع أحد أصدقائى ممـــن أثق بهم أن يذهب بى فى سيارته ، ولكننى رفضت ، وأنا أتمتم بأعذار وتعللات مرتجلة غامضة ،

وقلت فى النهاية حتى ألجئه الى الصمت :

ـ كنت ، لما تركت البلد منذ خمس وعشرين سنة ، كمـا تعرف ـ قد أخذت القطار ،، ألا تستطيع أن تفهم ؟

ولكنه مضى يلح بى :

ـ ولكن الحرب قد أصابت الخط بأضرار كبيرة ، والكبارى ليست فى الغالب الا كبارى خشبية مؤقتة ، والقطار يزحف بسرعة السلحفاة ، سوف تقضى الليل كله مسافرا

فقلت ، فى شىء من الضيق :

ـ أحسن

وطوال الليل جعلت وجهى الى نافذة عربة السكة الحديدية وكان بوسعى أن أرى منها مشهدا قد وسم ذاكرتى ، لايمحى ، وهو ينفتح أمامى : غيطان صغيرة حجرية ، وجبال مظلمـــة مجدبة لا أثر فيها لمأوى انسانى ، ورأيت محطـــات قروية مهجورة تظهر وتختفى ، ورأيت أبوابا موصدة ونوافذ مغلقة وبيوتا متداعية وحيطان مهدمة ، وأنقاضا حيثما اتجه البصر ،، وكانت الرائحة العفنة التى تنبعث عن الرجال والنســاء المكفوفين الى جانبى فى الظلمة ، بحزمهم وحقائبهم وصناديقهم

المحشوة بما اشتروه فى البلد ، تميل بى لادراك أنهم من الفلاحين ، وقد كان يبدو على بعضهم مظهر الموت ، فى نومهم عند الفجر ، وعلى البعض الآخر مظهر الهلع ، كلصوص قبض عليهم متلبسين ، بينما كان البعض الآخر يبدون مجهدين كما لو كانوا قد اقترفوا فسقا بالمحارم ، أو قتلوا زوجة لهم أو أبا . ولكنهم نفضوا أنفسهم، عندما سمعوا صوت الكمسارى الذى يرن بنبرة السيطرة ، واستأنفوا على الفور مظهر التحفظ الذى لا ينال منه شيء ، ذلك المظهر الذى يتخذونه عادة فى ساعات صحوهم .

وبينما كنت أحاول أن أشق طريقى ، فى الممر ، بين أجسام زملائى فى السفر ، وهم مستلقون على الارض ، وبين متاريس الحقائب والشوالات ، سمعت صوتا ينادينى :

ـ هيه ، ماذا تفعل هنا والله فى هذا القطار ، أتعود الى بلدك هذا فنتمارا ؟

فأجبت محنقا :

ـ لست أفعل الا ما يفعله الجميع . أسافر .

واقترب الصوت ، وألح بى ، فى نبرة المتآمرين :

ـ ولكن أين بالضبط ، فنتمارا هذه ؟ فى أية قرية من هذه القرى كنت تفكر عندما كتبت عنها ؟ آييلى ؟ أورتونا ؟ ليتشى ؟

ودخل القطار فى محطة .

فقلت وأنا أقفز الى الخارج :

ـ هذا سرى .

فصاح الآخر من النافذة :

- أين حقيبتك ؟ هل نسيتها ؟

فأجبت :

- ليس عندى حقائب . رح فى داهية .

لم أكن قد أتيت معى بمتاع ما . كنت أحس أن الامر ليصبح جد سخيف ، حقا ، لو أننى وصلت هنا ومعى حقائبى كالسائح أو السمسار المتجول . كنت قد خرجت ، منذ خمس وعشرين سنة ، من نفس هذه المحطة ، ولم أكن أحمل حقائب عندئذ . سافرت بالليل كاللص ، ولم يدر بخلدى أن كل هذه السنوات سوف تنقضى قبل أن يكون بوسعى أن أعود . وكان لازارو ، صياد الضفادع ، قد أصر على أن يوصلنى . كان اشتراكيا قديما ، ومن أهالى البلد .

وكنت قد قلت له : لا تأت . قد يتعرف عليك الشرطة ، ويتهمونك . لا تجعلنى أندم على ذلك

فأجاب : سأزعم أنه قد تصادف وجودى بالمحطة عرضا . سترى . لن أقول لك ولا كلمة واحدة .

وهكذا جاء ، مع بنته ، وحماره ، الى الوادى ، ومنه الى المحطة . ولكننا بالطبع ، انتهينا الى أن نتبادل الحديث .

وقال لى : امض بعيدا . وانس أرض الحزن هذه . حسن أنك ما زلت صبيا وأن أمامك كل الفسحة من الوقت حتى أن تنسى .

فأجبته : لازارو ، أقسم لك أننى لن أنسى .

فرد فى عنف : سوف تنسى . سوف تنهى دراستك ، وتتقدم فى الحياة ، وستنسى بالطبع . سترى كيف يسهل عليك أن تنسى

فقلت : لازارو ، لماذا نتعارك ونحن نفترق ؟ أقسم لك ، يا لازارو ، أننى لن أنسى ٠

فقال مؤكدا : لا أريد أن أتعارك ٠ هذا اخر ما يدور بذهنى ٠٠ ولكنك سترى ، هذا ما سوف يحدث ، سوف تتقدم أنت أيضا فى الحياة ، وستنسى ٠ صدقني ٠ اننى عجوز - فى سن جدك - وأعرف الحياة خيرا مما تعرفها ٠

وواصلت اعتراضي واحتجاجى عليه ، والدموع فى عينى ، وأنا أعالج فى مشقة ، ألا أنفجر باكيا ٠ بل توسلت لورينا، بنت لازالو ، الى أبيها أن يكف ، أو يتكلم عن شىء آخر ٠

وقالت لورينا : لعل هذه آخر مرة تتحدثان فيها الى أحدكما الآخر ، لعلكما لن تريا أحدكما الآخر مرة أخرى ، ومع ذلك تتعاركان ٠

فقال الشيخ ، فى اتضاع واعتذار : هذا آخر ما يدور بذهنى ، خاصة الآن ، ونحن نفترق ٠ ولكن ما أقوله شىء طبيعى ، لا أكثر ٠ والشىء الطبيعى فى نهاية الامر هو الشىء الصحيح ٠ سوف تستقر كما كنت أقول ، وتتقدم فى الحياة وسوف تنسى ٠

فاستدارت بنته لورينا الى ، فى أسى بالغ ٠ وقالت : يجب أن تفهمه ٠ فالحقيقة أنه يكن لك حبا عظيما ٠ أنت لا تتصور كم يحبك ٠ لا تتصور كيف يتحدث عنك عندما لا تكون موجودا ٠ انه يكن لك حبا أعظم مما يكنه لى ، أنا بنته ٠

فقال الشيخ وهو ينغض رأسه موافقا : لعل ذلك صحيح - بل الحقيقة أن الامر هو فعلا كذلك ٠ ولكن من أنا ؟ فلاح فقير ٠ ومن هو ؟ شخص مثقف ٠ وككل الاشخاص المثقفين سوف يتقدم فى الحياة وينسانا ، وينسى هذه الارض التعسة

وقد طالت رحلتى عما كنت أتصور ، وطال غيابى أيضا ٠

فبعد بضع سنوات ، فى ١٩٣٠ ، لجأت الى قرية سويسرية ، مريضا خائر القلب ، وخيل لى عندئذ أننى لن أعيش طويلا، فأخذت فى كتابة حكاية أسميتها فونتمارا • وبنيت لنفسى قرية ، بلحمة ذكرياتى وأحلامى ، وأخذت أعيش فى هذه القرية • وكانت نتيجة ذلك حكاية بسيطة مستقيمة • ولكن قراءها ، فى بلدان كثيرة ، وجدوا فيها ما يثير المشاعر ويمس القلب ، بفضل تلك الاشواق الغامضة التى كانت تشيع فيها • وسمعت بعد ذلك أن هذا الاسم نفسه فونتمارا ، وهو اسم قد اخترعته اختراعا ، يطلق بالفعل على عدة قرى فى جنوب ايطاليا ، وأن الاحداث التى حكيتها قد وقعت فعلا قبل ذلك بقليل فى أماكن مختلفة ، وان لم يكن ذلك بنفس السياق الذى ذكرتها به فى الكتاب ، ومع تفاوت فى التفاصيل • ومن الواضح مع ذلك أنه ليس ثمة ما يدعو لان تقلل هذه المصادفات المتعددة من قيمة شطارتى هذه، بل أعتقد أنها انما تزيد من قيمتها • فالكثير جدا من الناس يشتركون فى أسماء مثل مارى وجون وفرنسيس ولويس الى آخره ، والكائنات البشرية جميعا تشترك فى الاحداث الهامة حقا فى الحياة ، فى الميلاد والحب والالم والموت ، ولكننا مع ذلك لا ينالنا التعب أبدا من الحديث عنها •

أسفا ، ليس من السهل عندما ينمو المرء ويصل الى نضوج، أن يعود الى مسارح الطفولة ، هذا اذا كان لم ين يفكر فيها طوال سنين الغياب ، اذا كان لم يك ، على البعد ، أن يخيب أحداثها كما يتصور وقوعها • بل ان ذلك ليمكن أن يكون عملا فيه مغامرة وخطر •

لذلك شد ما كان حرجى بالغا ومؤلما ، بعد أن أذاعت الصحف والراديو خبر عودتى الى ايطاليا ببضع أيام ، أن جاء الى روما وفد عجيب مؤلف من أعيان القرى ورؤساء الاحزاب السياسية المحلية ، ليزورنى ويقترح على تنظيم برنامج

للاحتفالات ، احتفاء بعودتى الى بلدتى التى ولدت فيها . لم يكن بوسعى أن أرتجل تلك الخطبة الصغيرة المألوفة التى تخفى عن هؤلاء الناس الطيبين تحت ستار من التعللات والاعذار التقليدية ، مدى ما كنت أحسه من استبشاع لمجرد فكرة العودة وسط مظاهرة من الصخب والفصاحة الى تلك الاماكن المثقلة عندى بذكريات لا يمكن وصف ما فيها من أسى . ومن ثم رجع الوفد ، متحيراً . وقد سمعت فيما بعد أنه لم يستطع أن يستقر على رأى فيما اذا كان رفضى الذى لا كرم فيه يعزى الى صلابتى السياسية المتطرفة ، أو الى كراهتى المريضة للانسانية جمعاء . الا أن الامر ، لحسن حظى ، قد أستقر عند ذلك الحد .

ثم جاءنى خطاب كاهن الابرشية ، وبدا لى لاول وهلة انه خطاب من النوع المألوف ، يرجونى أن أفيد من نفوذى فى مصلحة حكومية ما ، لكي أحصل على منحة لسجين سابق قد عاد الى القرية أخيرا ، ذلك النوع الذى ألفت أن أتلقاه من الخطابات ، فى الواقع . ولكن اسم السجين السابق أيقظ عندى صدى لم يكن كاهن الابرشية ليشتبه فى وجوده . فقد كتب لى : أنت بالطبع لا يمكن أن تعرف من هو هذا الرجل البائس ، اذ حكم عليه بالسجن لجريمة ارتكبها فى نفس السنة التى ولدت أنت فيها .

وقد كانت تلك هى الحقيقة . لكنها لم تكن كل الحقيقة .

وبحثت عبثا ، فى ميدان المحطة ، عن الاتوبيس الذى كان يتوغل صاعدا على سفح الوادى حتى بلدة ب . وقيل لى أنه قد أوقف عن السير ، منذ بضع سنوات .

واقترح على معاون البريد : انتظر هنا . فربما مرت عربة أو نحوها . أنت من أهالى هذه النواحى ، أليس كذلك ؟

ورأيت فى وسط الميدان نافورة كبيرة ، تحتشد حولها

النسوة • وكانت طريقتهن التقليدية فى الكلام ، وحركاتهن التقليدية ، كما لو كن يؤدين طقوسا دينية عنيفة ، تهبط على قلبى كقطرات من العسل • وكانت النسوة الشابات يعقدن مناديلهن فى مؤخرة العنق ، والعجائز يعقدونها تحت الذقن• وعندما تملأ احداهن جرتها بالماء تساعدها الاخرى فى رفعها ووضعها مستقيمة على الخرقة الطرية التى تقى رأسها •حتى النساء العجائز كن يرفعن رؤوسهن عاليا تحت حملهـــن ، ويسرن مرتفعات القامة ، حتى لا ينسكب الماء • وكانت تجلس على مبعدة ، أم تؤرجح طفلها فى ظل شجرة وكان المهد على شكل سفينة صغيرة دقيقة تهتز فى حركة بطيئة متموجة • ثم وصل بعض الفلاحين الى المحطة ، مرتدين ملابس الاحد ، يثقلهم متاعهم المكظوظ ، ويبدو عليهم ، كالعادة ، مظهــــر اللاجئين ، أو المتشردين •

وسألت معاون البريد وأنا أقلب النظر حولى : هل جاءتكم الحرب هنا •• لا يبدو على البلد شيء من ذلك ؟

فقال لى مفسرا : ان القدر قد اضطهد هذه القرية • حتى الزلزال لم يمر بها • لذلك فليس لدينا هنا تعمير، ولا إعانات من الحكومة ، ولا أى مساعدة على الاطلاق : لا شيء ألا الفقر ، الفقر • الفقر •

وعقدت عزمى فجأة على أن أذهب ماشيا ، بل خيل الىّ أن ذلك أحب لى •

فحذرنى المعاون : ستظل تمشى ساعتين على الطريق• وأنت لا تعرف تلك الطريق ، انها متربة ، صخرية •

فأجبته بلهجة البلد : سآخذ الطريق الاقصر •

فصاح : آه ! أنت من أهل البلد •

وسرعان ما جاءت فى الوادى مشاهد أكثر غرابا واجدابا ،

لتحل محل الكروم المتشابكة الصفراء والخضراء • ولم يكن
يزيل التلال الكئيبة الا بضع أشجار جميز ولوز عجفاء، وبضعة
صلبان تكاد تبدو مصنوعة من الورق المقوى • وخطرت لى
فكرة أن الشباب ليس تجربة يحدها الزمان فحسب ، بل
المكان أيضا • وتساءلت كيف يمكن للناس ، اذا ما بلغوا
سنا معينة ، أن يعبروا الحدود الى أراض جديدة فى الروح ،
طالما كانوا يواصلون الحياة ، فى الجسم ، فى نفس البلد
القديم ، طوال الوقت ؟ ان من الايسر ، والابسط ، عندما
تبلغ سنا معينة ، بل ربما كان من النزاهة أيضا ، أن
تسافر • ولكن السفر ـ عندما يتأتى لك أن تفكر فيه ـ
ما معناه حقا ؟ كم من أولئك الذين مكثوا هنا ، دائما ، ودفنوا
الآن هنا ، كم منهم قضى حياته يتنهد شوقا للبلاد الغريبة ،
بينما من المسلم به ، من قديم ، أن الحنين للوطن هو شكاة
المهاجرين التى لا تنقطع ؟ هذه الارض ـ هل نسيتها أنا أبدا؟
هل دار بخيالى حلم بشىء ما لم تكن هنا بدايته ونهايته ؟
وعندما كنت أسير ، أخذت أحاول أن أصل حلقات السهرات
واحدة بالاخرى ، وأن أعود فأرسم خطوط النمط الذى سارت
عليه حياتى ، وعبثا ساءلت نفسى ما اذا كان لها ثم معنى

التقيت برجل بوليس ريفى يعلق بندقيته على كتفه ويحمل
صفا معلقا من الضفادع المسلوخة مغروزة فى فرع صفصاف

فقلت له : كان هناك صياد ضفادع فى ب • رجل اسمه
لازارو • هل كنت تعرفه في وقت ما ؟ ماذا جرى له ؟
فأجاب رجل البوليس : مسكين • لم يصادف الا المتاعب
طول حياته • ولكنى أؤكد لك ، كان ذلك ذنبه • كان مجنونا
حقا • لم يكن شريرا ، بل مجنونا •

فسألته : أى متاعب ؟

فأجاب : كل أنواع المتاعب • ولكن يجب أن نقول أنه جلبها

على نفسه . الحقيقة أنه لم يكن يستطيع أن يهتم بحـــاله ، ويدع شئون الآخرين . هذه هي الطريقة التى أصابه بهـا الجنون .

سألته : كان عنده بنت اسمها لورينــا ، أليس كذلك ؟ ماذا جرى لها ؟ أين هى الآن ؟

فأشار رجل البوليس بيديه اشارة غامضة ، يعنى أنه لم يكن يعرف .

فى نقطة من الطريق ، يضيق الوادى ويدفأ ، ويختـــزن الحرارة كما لو كان محضننا زجاجيا . وسرعان ما يفضى به الممر الذى يسير محاذيا للجدول ، الى حيث كانت المتيـــاه الساقطة من حائط صخرى تتجمع فى بركة صافية رقراقة . كنت فى صباى ، آتى كثيرا هنا لاجلس على الشط، أدلى قدمى فى التيار المثلوج ، وأرقبه ينساب تحتى ، وبعد قليــل كان الشط يتحرك ، وأنا مع الشط .

وفى نفس المكان وجدت الآن عجوزا تستريح على العشب، وبجانبها سلة مليئة بالجوز . وكانت تبدو ، فى ارهاقهـــا وكلالها ، وقد أسلمت نفسها للتعب ، شيئا غريقا ممددا على العشب ليجف . وما أن أبصرتنى حتى اعتدلت وأصلحت من ملابسها . وقالت لى انها كانت فى السوق الاسبوعى فى م . لتحاول أن تبيع الجوز ، ولكن أحدا لم يشتر منها شـــيئا . وقد كانت هذه المرة الثالثة التى تأتى به للسوق .

فقلت : ولكن حتى اذا بعت الجوز ، كم تنالين فى مقابله ؟ هل يعوضك عن كل هذا التعب ؟

فأجابت :التعب ؟ امرأة مثلى ، ربة عائلة ، هل بوسعها أن تتوقف لحظة لتفكر فى التعب ؟

وقالت ان لها بنتا مريضة فى البيت ، وقد كتب الطبيب لها

برشاما • والبرشام يكلف نقودا • وقد تحاول ، ثلاثة أسابيع ، دون نتيجة ، فاذا ماتت بنتها فى أثناء ذلك ، ماذا يقول الناس ؟ سوف يقولون : « الذنب على أمها »

وسعلت المرأة العجوز ، وأخذت تتلمس الارض وتنافح للنهوض على قدميها فى حركة عشواء ، لتستأنف سعيها • ومشيت بجوارها قليلا ، أحمل لها سلتها •

قالت : يجب ألا أستريح فترة طويلة • فاذا استرحت فترة طويلة صعد التعب كله الى أعلا ، وما عاد بوسعى أبدا أن أن أنهض بعد ذلك على قدمى • ان ما بقى لى من قوة قليلة لينتهز الفرصة عندئذ ويتركنى الى الابد • حتى بالليل ، يجب أن أقوم مرة أو مرتين من سريرى ، لاننى أنا أخبز لقريتنا كلها • لذلك لا وقت عندى للاحساس بالمرض

وبعد مسافة قصيرة افترقت بنا الطرق ، لأن المرأة كانت تسكن ناحية ف •

وسألتها : هل تصادف مرة انك كنت تعرفين فلاحا عجوزا من ب • اسمه لازارو ؟ كانوا يسمونه صياد الضفادع ؟

فأجابت : فعلا كنت أعرفه المسكين الطيب القلب • وما أشق الحياة التى أرغموه أن يحياها • كان قديسا • لا أحد يستطيع أن يتكلم بكلمة رديئة عنه • لم يؤذ مخلوقا حيا أبدا فى حياته لكنه لم يكن يعرف أن يسلم • لم يكن يستطيع أن يحنى رأسه •

قلت : يجب ألا يسلم المرء أبدا بالذل • يجب ألا يسلم المرء أبدا بالظلم •

توقفت المرأة ونظرت الى فى عطف عميق ورحمة •

وقالت : مسكين • انت اذن واحد من الصنف نفسه ؟

ولكن يا بنى ، يا مسكين ، ما الفائدة ، قل لى ، ما الفائدة؟ فالاحسن أن تسلم

فأجبتها : واذا سلمت ، فما الفائدة فى ذلك ؟ انت مثلا ، يا أمى .. هل أفادك التسليم فى شىء ؟

فقالت : لا لم يفدنى أبدا . ولكن اذا كان يتساوى أن نرفع الرأس أو نخفضها ، فالاحسن أن نخفضها . لخلاص أرواحنا

قلت : كان عند لازارو بنت . اسمها لورينا . أهى ما تزال تعيش ؟

فأجابت المرأة : ما زالت تعيش . تعيش مثلى ، كما يجب أن تعيش المرأة الفقيرة ، خافضة الرأس . نحـــن جيران ، بالصدفة .

ثم قالت : سأخبرها أننى قابلتك . ستفرح لذلك . ما اسم أبيك ؟

فقلت : لا يهم الاسم .

وها هى ب ، على قمة التل ، لم تتغير القرية منذ يوم أن غادرتها ، وكان بوسعك أن تسرى فى وسط المنازل السوداء المكتومة تلك الفجوات بأطلالها التى خلفها الزلزال منذ ثلاثين سنة . وعندما دخلت القرية استبد بى تردد مفاجىء لا تفسير له ، وخامرتنى الرغبة فى العودة ، فى الهرب . ولعل تلك بالضبط كانت لحظة اخراج الرغفان من الفرن ، فأتت لى نفحة من الريح برائحة الخبز الطازج التى ألانت قلبى ، وكسبتنى

كان يسير أمامى شيخ ، وظننت أنه شحاذ ، على الارجح ، أو غريب عنى على أى الاحوال . كان يجر قدميه، ويبصق على يمينه ، كل عشر خطوات تقريبا .

قلت له : يا عم ، تقدر أن تخبرنى عن الطريق الى بيت الكاهن ؟

فتوقف ونظر الى فى شبهة

وسألنى : عندك كبريت ؟

فأعطيته عود ثقاب ·

فقال : عندك واحد ثان ؟

فأعطيته بضعة أعواد أخرى ، وعندئذ أدار الى ظهره ومضى فى زقاق منحدر ، دون أن يجيب سؤالى · لكنى وجدته مرة أخرى عند باب عريف الكنيسة ·

كان يقول للكاهن : لا بد أنه جاء من أجل الضرائب ·أسرع واختبىء ·

ولم يعرفنى كاهن الابرشية لاول وهلة، فدعانى ، فى حرج، الى الدخول فى غرفة العريف ، وعلى وجهه ابتسامة خجلى يقصد بها أن تثير عندى الشفقة - ابتسامة حلوة ممرضة كعسل النحل الذى يغتذى بزهور المدافن · ولكنه تنهد براحة ، بعد كلماتى القلائل الاولى ، وضحك بانفعال · وأخذ يثور دون ضابط · وكان يريد أن يندفع للخارج لينهى الخبر الى العمدة والى أهالى القرية · لا بد أننا كنا أندادا فى السن، اذ كنا معا فى المدرسة ، ولكنه كان يبدو أكبر سنا منى بكثير

قلت : انني هنا بمجرد الصدفة · مجرد مرور لا أكثر · وسأمشى الليلة أو بكرة على الأكثر ·

فسألنى : ألم يعرفك أحد فى الطريق ؟

قلت : لقد مرت خمس وعشرون سنة ·

فصححنى : تعنى خمسا وعشرين قرنا · بالضبط خمسا وعشرين قرنا ·

قلت : أوثر ألا يعرفني أحد . لم تعد لي رغبة في الصخب والضجيج ، والناس القلائل الذين كنت أحب أن أراهم لم يعودوا أحياء .

فقال لى : لقد قاست القرية كثيرا أثناء الحرب . قتل الالمان كل البهائم أو خطفوها . يجب أن تكلم العمدة . باستطاعتك أن تساعدنا بالكثير .

قلت : انني جئت هذه المرة بالصدفة . تصادف أنني كنت مارا بالناحية ، فقلت أعرج هنا بضع ساعات ، هذا كل ما في الامر . لذلك أكون ممتنا لو أنك لم تسلمني لأحد . ولكني ما دمت هنا ، فهناك تلك الحكاية التي كتبت لى عنها . أأستطيع أن أكلم هذا الرجل كلمتين ؟ فقال ، وهو يقف : سأناديه على الفور ، انه خارج الباب . انه هو الذى كان يخبرني بقدومك .

وذهب الكاهن الى الباب لينادى الرجل . وناداه مرتين ، ولكن الرجل رفض الدخول .

فقلت عندئذ : اتركني وحدى معه .

كان الرجل يقعي على جذع شجرة دردار ، ملقى تحت جدار حجرة العريف . وكان يجلس هناك خاملا متكاسلا ، كأى شحاذ عجوز .

فقلت له : عندى حكاية لك .

فأجاب : أعطني أولا عود كبريت .

أعطيته عود كبريت وجلست بجانبه . ورأيت أربطة من الخرق حول قدميه ، بدلا من الحذاء . وكان شعره الأرمد ما زال ملبدا ومشعثا . ولوجهه ويديه لون تربة مغبرة تغطيها الشقوق . وكانت عيناه أكثر ما روعني . بلونهما الأخضر

الغريب النادر الذى يكسبهما دلالة عن فطنة حذرة وكليلة •

قلت : اننى أذكر خادما كانت عندنا فى البيت ، لما كنت طفلا • كانت امرأة من القرية ، وان كان باستطاعتك أن ترى، من مظهرها وسلوكها ، أنها تنتمى الى عائلة أطيب من العائلات التى يأتى منها الخدم عادة فى نواحى بلدنا •

فسأل : أنت من هذه النواحى ؟ ما اسم أبيك ؟

فقلت : سوف تخمن ذلك حالا • لم أستطع أبدا أن أفهم لم كان على تلك المرأة أن تعمل خادما فى بيوت الآخرين • وخلال طفولته كلها كان ذلك أحد الأسئلة الكثيرة التى لم يكن بوسعى أن أظفر عليها الا باجابات مراوغة • كانت أمى تقول لى : « وقعت لها كارثة كبيرة فى أسرتها ، واضطرت أن تنفق كل مليم عندها على أتعاب المحامين • كن رفيقا بها » • لم تكن تختلف عنا - كما قلت - فى المظهر والسلوك ، ولم يطامن الحظ العاثر من كبريائها • وكانت عيناها خضراوين كعينيك • هل تعرف أننى سافرت كثيرا ، ولم أعثر أبدا على مثل هاتين العينين !

نهض الرجل بغتة على قدميه ، ودعانى أن أتبعه • فقد ارتفع صوت يناديه من مكان ما ، لكنه لم يجب • وأدى بى ، عبر أزقة مهجورة ، الى كنيسة قديمه كان الزلزال قد دمر الجانب الاكبر منها ولم يجر بها تعمير ما بعد ذلك • وظل جزء من القبة ، بين بضع أطلال أخرى ، قائما ، بوسعك أن تراه من بعيد • وكان هذا الجزء مصورا من الداخل على صورة سماء زرقاء تسبح بها أرواح القديسين تحمل أكاليل الورد ، وكلمة « المجد لله » • وقد ظل أحد أركان البناء سليما ، فأحيط بالجدران وغطى بسقف • وقد صرحت الأبرشية للسجين السابق بأن يأوى اليه • لم يكن هناك الا أربع جدران عارية ، لا شىء غيرها ، وما زالت ترى بجلاء وصلات الأحجار

في الجدران وكان ثم فانوس معلق في قطعة من السلك ، من عارضة خشبية في السقف • وقامت في الركن نقالة للنوم ، وبجانبها مائدة عليها رغيف من الخبز ، وبصلة ، وبضع حبات من الجوز • وأخذ الرجل ، من طاقة عميقة محفورة في الجدار ، زجاجة وكوبا وقدم لى ـ بصمت ـ شرابا ، بوقار شماس يصب النبيذ في كأس القسيس ، وباجلاله •

جلسنا على النقالة ، واستأنفت كلامى •

فقلت : لم تتلق أمك خطابات منك الا عندما انتهت فترة الحبس الانفرادى الطويلة ، بعد انقضاء الجزء الاول من الحكم عليك بالسجن مدى الحياة • وبالرغم من ذكائها ، وبالرغم من يسر حال أبيها ، فلم تكن تعرف القراءة والكتابة • ولم يكن ذلك غير مالوف في نواحينا ، كما تتذكر • فقد كان أهل الريف في تلك الايام يظنون أن في تعليم البنت القراءة والكتابه إسرافا وطيشا ، ان لم يكن حراما بالفعل • وكنت ما أزال في المدرسة الاولية ، ولم استطع أن أفهم عندئذ لماذا أفردتنى أمك ، من بين كل الناس الجديرين بالثقة والذين كان بوسعهم أن يقرأوا لها خطاباتك ويكتبوا لها الردود • وأنت تعرف الموضوع الواحد الذى لم يتغير في كل خطاباتك ، وكل ردودنا عنها • واذا لم يغب عنك مدى صغر سني ، ولم يدهشك أن تعرف أن ذلك كان أول حدث كبير في حياتى ـ بلا مغالاة ـ وقد مررت بعد ذلك بتجارب حدثت مستقبلى ، وكانت كلها تشبه تلك التجربة الاولى ، في قليل أو كثير • وقد كان من الاشياء الكثيرة التى كانت تثير دهشتي وتساؤلى ـ في البداية ـ أن كيف تأتي لامرأة أمينة غاية الامانة كأمك ، أن تدخلنى في مثل هذه المراسلات الخطيرة دون أن تدع والدى يعرفان شيئا عنها • فسألتها صراحة عن السبب في نهاية الأمر • فقالت : الآن وقد قرأت خطابات

ابنى ، فهل تؤمن ببراءته ؟ فأجبت : بالطبع ، أنا مؤمن ببراءته ، اننى أعرف أنه ليس القاتل • فقالت : أما الآخرون، فمقتنعون جميعا بجرمه • لذلك لا أريد أن ألجأ اليهم •

سألنى الرجل : أكنت مقتنعا ببراءتى من أول الامر ، من أول لحظة ؟

قلت : بالطبع ، كنت قد عرفت ذلك فورا •

فألح بى : كيف • ماذا دعاك لأن تعتقد ذلك ؟

قلت : كان ذلك في منتهى البساطة • كنت قد عرفت ، هكذا •• وقد سألت أمك مرة ، فيم يهمها ماذا أعتقد ، فلم أكن الا صبيا • فقالت : هذا هو السبب ـ بالضبط ـ لأنك مازلت بريئا •

ويتعين على أن أعترف أننى بدأت منذ ذلك الحين أشك فى براءتى تلك نفسها ، وفى براءة العالم ، كانت فكرة جديدة على ـ تلك ـ وشغلا شاغلا ، أننى لم أكن لأستطيع أن أشارك أحدا : لا أبوى ، ولا مدرسى ، ولا الكاهن ، يقينى ببراءتك ، وأن كل ما يتعلق بهذا اليقين الخفى ، يتحتم اذن أن يجرى فى الخفاء أيضا • وشعرت أننى أنساق ، بعبارة موجزة ، فى مؤامرة حقيقية ، شريكا لسجين وأمه ، وكان عدوك هو الظلم ، ينضوى تحت لوائه الرأى العام والدولة • وكنت أنت تردد أدلة براءتك فى كل خطاب لك • ولم تيأس أبدا • بل ثابرت على دحض القرائن التى أدانتك ، فى غياب الأدلة القاطعة على ادانتك • وكم أرقتنى تلك الخطابات ليالى طويلة ، بل كانت تزودنى ـ عندما أنام ـ بكوابيس رهيبة • ثم الخطابات التى كنت أكتبها لك • وأنت تذكر أننى لم أكن قد غادرت البلد قط ، ولم تكن قد أتيحت لى الفرصة للكتابة لأحد من قبل • وتستطيع أن تخمن أن هذا الواجب الخفى دفع بدروسى الى المؤخرة من اهتمامى • وكان كل خطاب على أن

أكتبه لك يشغلني تماما أياما عديدة ، ولم يكن من السهل على طفل في سني أن يجد التعبير الملائم لكل ما كانت أمك تخبرني به عن نفسها ، وعن المحامين ، والشهود الزور ، والديون التي يتحتم أن تؤدى ، والعرائض والالتماسات التي ترسل الى الملك ، والى الملكة الأم ، والى ولى العهد ودوق ابروزى ، والبابا ، وحفيدة الجنرال غاريبلدى • واستمر ذلك كما تعرف ، سنين عديدة • وتلك كانت ، طوال تلك السنين ، مغامرتي ، وأسطورتي ، ومؤامرتي ، حتى ماتت أمك بالقلب ، عندما تيقنت أن قضيتك لن يعاد النظر فيها بأية حال • لماذا أحكى لك ذلك كله ؟ فقط حتى أشرح لك لماذا أخذت القطار بالأمس وجئت لأراك ، بمجرد أن تلقيت خطاب الكاهن الذى يذكر فيه اسمك •

وقف الرجل ، وسألني :

ـ لست أدرى ما اذا كنت تحب الفلفل الاخضر • سامحني اذا لم يكن لدى ما أقدمه لك غيره •

وخرج من باب صغير ينفتح على الحوش الذى كان فيما مضى فناء الكنيسة ، وقد تراكمت الآن فيه الانقاض والهدم • وقد قامت بين بضع أحجار مسودة ، أشفية للطهو على ثلاثة أرجل • وتبعته •

وقلت : هناك شيء واحد أحب أن أسألك عنه •

ـ تريد أن تعرف ما اذا كنت حقا بريئا من الجريمة التي قضيت عنها خمسا وأربعين سنة في السجن ؟

فقلت : لا •• أبدا •• انما كنت أريد أن أعرف لماذا لم تقل لأحد على الاطلاق ، لا لمحاميك ولا لأمك ولا للمحلفين ، أين قضيت ليلة الجريمة • لقد حكم عليك أساسا ـ كما تعرف ـ بسبب صمتك في هذه النقطة الجوهرية

فقال : أرجو أن تصدقنى • اننى آســف جــدا ، ولكنى لا أستطيع أن أخبر أحدا بذلك ، حتى أنت •

وأخذ بضع حبوبا من الفلفل الاخضر من السلة وفتحهــا بعناية ، وأزال عنها البذور ، ونســقها فى مقلاة على أثفيــة الموقد •

وقال : لست أدرى اذا ما كنت تحب الفلفــل الاخضر • أرجو أن تسامحنى اذا لم يكن لدى ما أقدمه لك غيره •

على الطرق المتربة

ايجنازيو سيلونى

كان يحجل على الطريق المترب المهجور رجل ضـــئيل رث الثياب ، حافى القدمين ، تحيط بيديه القيود الحديدية ، بين شرطيين من رجال « الكارابنييرى » • وكان يحجل على نحـو مؤلم ، كما لو كان يقوم بخطوات صعبة فى رقصة ما • ولعله كان أعرج ، أو لعله أصيب بجرح فى قدمه • وفى ضوء الشمس الساطع كان الشرطيان بردائهما الأسود يشبهان مســـاعدى حانوتى ، وكان الرجل الضئيل بينهما يشبه حيوانا وقع فى المصيدة ، فى خندق ما ، ينبض بالحياة وبما فيـــه من شىء ما يتصل بالارض • وكان يحمل على ظهره حزمة يصـــدر عنها صوت صواء ، كصرخة طائر زمن الحصاد ، والصوت يصاحب حركته فى الحجل والوثب •

وكنت أجلس على عتبة الباب ، وقد تفتحت كتاب الاملاء على ركبتى ، أصارع الحروف المتحركة والحـــروف الســاكنة ، عندما لحظت اقتراب هذا المنظر المضحك المثير للرثاء • وقـــد كان فيه ترويح غير منتظر لما أنا فيه من عناء ، فأخذت أضحك • وتطلعت حولى أبحث عن شـــخص آخر أشــــاركه دهشتى ، وعندئذ سمعت وقع خطوات أبى الثقيلة وافدا من البيت •

فقلت وما زلت أضحك : أنظر ، أليس مضحكا ؟

ولــكن أبى رمقنى بنظرة صارمة ، وأنهضــــنى بعنف على قدمى ، وجرنى من أذنى الى غرفة داخلية • لم أكن قد رأيتـــه أبدا من قبل على هذه الصورة من الحنق •

فسألته وأنا أدعك أذنى المتورمة : ماذا فعلت ؟

ـ يجب ألا تضحك أبدا ، أبدا ، من سجين •

ـ لماذا ؟

ـ لانه لا يستطيع الدفاع عن نفسه . ولأنه بعد ذلك قد يكون بريئا ، من يعرف ؟ ولأنه ، على أى حال ، عاثر الحظ .

وترك الغرفة دون أن ينبس بكلمة أخرى ، وبقيت وحدى ، فى حيرة جديدة على . ولم تعد تهمنى الحروف الساكنة والمتحركة ، ولا تجميعاتها وتطوراتها .. وفى مساء ذلك اليوم، لم يرسلنى أبى الى الفراش فى الميعاد المعتاد ، بل فعل شيئا غير مألوف : أخذنى الى الميدان . ولم نجلس فى الطرف الأقصى من الميدان ، بجوار باب الكنيسة ، كما كان دأبه ، بل جلسنا الى مائدة خارج « قهوة الأعيان » حيث كان بعض الناس ينشقون نسمات من الهواء المنعش ، بعد اليوم القائظ .

وكان أبى على علاقة طيبة بوكيل النيابة ، فسأله : ما تهمة الرجل الذى قبض عليه اليوم ؟

وأجابه وكيل النيابة : السرقة .

فواصل أبى أسئلته : من أين أتى ؟ أهو متشرد ؟ متعطل ؟

ـ هو عامل فى مصنع الطوب . وقد سرق شيئا من صاحب المصنع .. هل سرق منك شيئا أنت أيضا ؟

فقال أبى : هذا غريب !.. لقد ظننت ، عندما رأيته حافى القدمين ، لا تغطيه الا خرق مهلهلة ، أنه هو الذى سرق منه شىء ما .

وقد كان منظر سجين ما ، يداه مغلولتان بالحديد ، بين شرطيين أو ثلاثة من « الكارابنييرى » منظرا مألوفا كثير الحدوث فى تلك الفترة ، على الطريق الذى يطل بيتنا عليه . اذ كان يتعين أن يمر من هذا الطريق كل من قبض عليه فى احدى القرى العشر التى تقع فى نطاق اختصاص محكمتنا .

ولما لم تكن وسائل النقل الاخرى متوفرة ، فقد كانوا يأتون بهم على الأقدام . وكان هذا الطريق هو الشريان الرئيسى الذى يصل قريتنا بوادى الفوشينو . وكان الطريق غير مرصوف ، فكان مظهره يتفاوت بتفاوت فصول السنة . وكان يلتئم كل صباح على الطريق موكب طويل من الحمير ، والبغال ، والبقر ، والعربات التى تنتمى الى كل الأنواع ، ومن معظم الرجال القادرين على العمل من السكان . وكان نفس الموكب يعود كل مساء ، حتى آخر الليل ، زاحفا ، منهوكا ، فى الاتجاه العكسى . وكان أهم معالم الطريق ، فى جيرة القرية ، نافورة تنصب فى حوض كبير تتوقف لديه الماشية فى الصباح ، وتقف فى صف طويل ، تفثأ ظمأها وتشرب زادها من الماء طول النهار .

وقد كان حدثا مهما ، قبول أبى أن أصحبه الى وادى الفوشينو للمرة الاولى . وأحسست دفعة واحدة أننى قد بلغت رشدى . وقد أيقظنى ، والعتمة ما زالت مخيمة ، ولكنه كان قد أطعم الثيران ، وأعد العربة أمام الباب . وكان جرم الثيران الهائل ، فى ضوء السحر الباهت ، وتلك البساطة البدائية فى الأشياء المحملة على العربة : المحراث ، وشوال من الدريس ، وقواوير النبيذ والماء ، وسلة الطعام الخشبية ، وصيحة الديك الفجائية التقليدية غير المنتظرة ، تمثل كلها تلك الحياة الجادة التى أتيح لى اليوم أن ألج بابها . وقد كان يتحتم علينا أن نبدأ فى ذلك البكور ، لأن غيطنا كان يبعد حوالى خمسة أميال عن القرية ، فى الجانب الداخلى من الوادى ، وقد كان من الأحكم لنا ، وللثيران ، أن نبلغه قبل مشرق الشمس . فالعربة التى تجرها الثيران تتحرك ، كما هو معروف ، بسرعة المشى تقريبا ، ولكن بطء العربة كان يتفق ومزاجى عندئذ ، مزاج الصبى الرجل الذى أتيح له ـ للمرة الأولى ـ أن يشارك فيما يحفل به الراشدون الكبار .

وأخذت أرقب الفلاحين الذين كانوا يرافقوننا على الطـريق ، أو يمرون بنا ، في موكبهم من الماشية والعربات • واسترعاني جمودهم ، وجدهم ، وصمتهم ، فحاولت أن أسلك كما يسلك الجميع ، وأن أخفي مشاعري • بل لم يكربني أن أبي ، وقـد غاص في أفكاره الخاصة ، لم يكد يوجه لي كلمة واحدة ، فقد كان في ذلك البرهان على أنني لم أعد عنده طفلا • واذ كنـا نتقدم في بطن الوادي أخذ حشد الفلاحين والعـربات والبغال والحمير يتفرق الى اليمين والى اليسار ، حتى لم يعد غيـرنا على الطريق ، في النهاية •

وعندئذ أدرك أبي فجأة أنه نسي شيئا في غاية الأهمية ، قسطه من الطباق في ذلك اليوم • كيف يتـــأتى له أن يقضي اليوم بطوله ، في هواء الوادي الرصـــاصي الثقيـل ، من غير تدخين ؟

لم يكن أكثر الفلاحين فاقة ليستطيع أن يســتغني عن الدخان في الفوشينو • وكانت الشمس قد أشرقت ، وكنـا قد ذهبنا مسافة في الوادي لم يعد ممكنا بعدها أن نفكر في الرجوع • وأحسست بالمهانة اذ كان أبي لا يفتـأ يردد : لم أنسه أبدا من قبل ، أبدا ، أبدا • فهل كان يعني أن الذنب ذنبي ؟ هاهي ذي سحابة تأتي فجأة ، فتغيم على اليـوم الذي كان ليصبح عندي يوما مشهودا • وعنـدما بلغنا أرضـنا ، أطلق أبي الثيران من العربة ، وعلقها بالمحراث ، دون كلمة ، بل دون أن يرميني بنظرة واحدة • وكان الطريق الطويل الذي تحفه أشجار الحور مهجورا ، شأنه شأن الغيطان المستطيلة المجاورة لغيطنا • فلم يكن ثم أمل حتى في أن نجد شخصا من معارفنا ، يرضى بأن يشارك أبي في طباقه •

كان أبي على وشك أن يبدأ في حرث أول شق في الغيط ، عندما ناداني قائلا : خذ هذه النقود ، وقدمهـا لأي شـخص يمر بالطريق ، فيمقابل سيجار ، أو شيئا من الطباق •

وكانت الشمس قد حميت ، ولم يكن من المحتمل أن يمر شخص ما بالطريق فى تلك الساعة . وخلع أبى رداءه ، ورفع المنخاس الحديدى ، وصاح بالثيران فى نبرة الغضب . وجلست مكتئبا على حافة القناة المعشوشبة التى تفصل الحقل عن الطريق ، وأنا أرقب أبى محنيا على المحراث خلف الثورين، يذهب ببطء ثم يعود ، ويذهب ثانية ، ويخط خلفه شقوقا مستقيمة ويداه فى التربة التى كان قد سودها السباخ المحروق . وكان الثوران يقومان بمهمتهما ، فى بطء ،وهدوء، ونظام ، على أن الشمس كانت قد أخذت ترسل شواظها اللاذعة . ولم يكن حاجز أشجار الحور العملاقة التى تحيط بالحقل من جوانبه الأربعة يهتز بأهون نسمة من الهواء ، وكان الماء فى القناة ساكنا لا حراك فيه ، طينيا ، كما لو كان آسنا راكدا . وغلبنى حس غير مستبين بالغثيان والنعاس ، وشعرت كما لو كنت أوثر البقاء فى البيت ، ولكن صوت أبى ، قرابة الظهيرة ، خضنى من همودى . كان يأتى فى اتجاهنا فلاح يركب حماره الضئيل . وقدكانا يبدوان بالفعل كما لو كانا يسبحان على تلك السحابة الدانية الكثيفة منالغبار تثيرها حوافر الحمار المختفية فى التراب . فجريت لألقاهما ، وأظهرت له النقود ، وطلبت على الفور مقايضتها بالطباق ، وأنا أشير الى أبى ، والثورين ، وقد توقف فى وسط الحقل. وكان الرجل يبدو فى مظهره ، من أكثر الفلاحين فاقة .

فأجابنى : ليس عندى سيجار بأكمله . نصف سيجار لا غير .

فقلت ، وأنا أمشى بجوار الحمار : حسنا .. خذ هذه النقود ، واعطنى ما عندك أيا كان .

فسألنى : ولماذا أقضى النهار بطوله - في الفوشينو - دون تدخين ؟ هو أبوك أحسن مني ؟

وأجبته : ليس أبى أحسن منك • ولكنه اذا ضاق بشىء ما ، فربما انقضى الاسبوع بأكمله دون أن يتفوه بكلمة •

فقال الرجل : وما له ، يعرف شغله •

وقد أخذ يعتريني اليأس ، وما زلت ماشيا بجوار الحمار • كيف لى أن أحصل على السيجار ؟

فقلت : عندنا غداء طيب فى السلة الخشبية ، وسأعطيك نصيبى اذا شئت • وفى القارورة عندنا نبيذ طيب ، من عنبتنا •

فقال الرجل ، وهو يعطينى نصف السيجار : خذ • خذه هدية •

ـ ألا تأخذ النقود ؟

ـ لا •• ماذا يفعل الواحد بنصف سيجار ؟ اما أن يرفض، أو أن يعطيه ، بلا مقابل •

فلم أواصل الالحاح ، كنت فى عجلة من أمرى حتى أذهب أزهو بما فعلت أمام أبى •

وقال أبى ، عندما أبلغته بحديثى القصير مع الفلاح : غريبة •• كان ينبغى على الأقل أن تعرف اسم الرجل •

وانقضت بضعة شهور • وكنت أجلس ذات مساء أمام عتبة دارنا ، وعلى ركبتى « خرافات فيدروس » عندما أتى ، من الطريق ، ذلك الرجل الذى أعطانى نصف السيجار ، ويداه مغلولتان بالقيود الحديدية ، بين شرطيين من «الكارابنييرى» • عرفته على الفور ، وخفق قلبى بعنف • وجريت أبحث عن أبى لأخبره بما حدث ، لكنه لم يكن فى البيت ، ووجدته بعد ذلك يسقى البقرات • ولابد أننى كنت مضطرب المظهر جدا ،

اذ أن منظرى أزعجه حتى سألنى ما اذا كان قد وقع شيء في البيت •

وكان اليوم التالى يوم أحد • وعندما خرجت من الكنيسة بعد القداس ، وجدت أبى ينتظرنى ليأخذنى معه الى وكيل النيابة •

وقال أبى : أخبره بنفسك بالحقيقة • فأنت تعرف الرجل خيرا منى •

وقال وكيل النيابة : لقد قبض عليه متلبسا بالسرقة •

فدهشت أعمق الدهشة • كان بوسعى أن أتصوره قاتلا ، لكنى لم أستطع أن أصدق أنه كان لصا •

وحاول أبى أن يفسر الأمر لى : لابد أنه فعل شيئا دعا الشرطة والنيابة لأن تعتقد أنه كان لصا •• ولكن الله وحده يعرف ماذا فعل •

وكان وكيل النيابة طيب القلب ، فأعطانا تصريحا بزيارة الرجل فى السجن ، وما زلت أذكر أدق تفاصيل هذه الزيارة ، اذ كانت تلك أول مرة أضع فيها قدمى في مثل ذلك المكان ، نظرا لصغر سنى عندئذ • واقترح أبى أن نأتى له معنا بهدية صغيرة •

فقلت : أحسن شيء أن نأتى له بعلبة سيجار •

وأدخلنا السجان الى غرفة عطنة ، وأشار الى فتحة فى الجدار كان مسموحا لنا أن نحدث السجين منها • وعرفنى السجين من أول نظرة •

كان طريقنا ينشعب ، على كل من جانبيه ، الى بضع أزقة ضيقة ، تصطف عليها مساكن حقيرة ، تتكون فى الغالب من دور واحد • وكانت تعيش في احدى هذه المساكن امرأة

صبية ، جويديتا ، صانعة السلال • وقد أطلق عليها ذلك الاسم لأنها واصلت مهنة أبيها فى صنع السلال من الخوص ، والسلال الخشبية • ولم تكن تلك مهنة تقيم أود صاحبها ، ولكنها — على أية حال — تحول دونه والموت جوعا • وكانت قد تزوجت ، وهى ما تزال غضة السن جدا ، بفلاح لا أرض له ، هاجر الى بنسيلفانيا ، بعد زفافه بقليل ، وفى نيته أن يكسب ما يمكنه من الصودة وشراء قطعة من الارض ، وبستانا للخضر ، وكرمة أيضا ، اذا كان مجدودا • وبعد أن مرت على جويديتا سنة من القلق واليأس ، وغلبها الفقر ، وغلبها — قبل كل شيء — الخزى لهجران زوجها ، حاولت أن تشنق نفسها • لكنها أنقذت ، فى ظروف غريبة شيئا ما ، اذ مر ببيتها شحاذ من ناحية أخرى فى البلد ، ودخل فى تلك اللحظة بالذات ، يطلب منها كسرة من الخبز ، وخلصها الشحاذ المجهول من الأنشوطة التى كادت أن تخنقها ، وأرقدها على مرتبة من القش ، ونادى النسوة من الجيران ليعنين بها • ولم يستطع أحد أبدا أن يعرف من هو ذلك الغريب ، ولا من أين جاء ، ولا كيف خطر له أن يأتى يطلب الصدقة فى مثل هذا الزقاق البائس ، فقد اختفى دون أن يترك أثرا •

وقد أثارت جويديتا ، بفعلتها اليائسة ، اضطرابا كبيرا فى القرية ، ومالت النفوس جميعا بالعطف عليها ، ومس تعثر حظها قلوب الناس جميعا مسا وثيقا • ذلك أن مصدر الرزق الرئيسى ، فى هذا الحين ، للعائلات الفقيرة فى ناحيتنا تلك من العالم ، كان يأتى من حوالات البريد النقدية التى كان يرسلها الاقارب المهاجرون الى أمريكا • وقد كانت الخطابات الآتية بعلامات بريد فيلادلفيا أكثر بكثير ، فى حقيبة نيكولا ساعى البريد من الخطابات الآتية بعلامات بريد روما أو ميلانو ، وكان انتظار مثل هذه الخطابات أشق وأشغل للأذهان ، اذ كانت تأتى أحيانا ، وهى مغلقة ، كما لو كانت تتضمن بقايا قديس ، بأختام كثيرة بالشمع الاحمر • وكان

نيكولاى ساعى البريد يجعل المستلم يوقع على دفتر عنده ، قبل أن يسلمها • واتخذ ساعي البريد ، فى نظر الكثيرين ، دور العم الخير الكريم فى الحواديت والأساطير • وكانت خصاله الدمثة ، وطيبة قلبه ، وتدينه ، تتفق وهذا الدور خير اتفاق • وقد كان فى صباه يريد أن يصبح قسيسا ، ولكن المقدرة المالية على استكمال الدراسة كانت تعوزه • ولعل بقاءه عزبا طيلة حياته كان نوعا من الاستجابة لهذا الحافز الدينى فى طبيعته ، وقد كان يومىء بنفسه الى ذلك أحيانا • وكان بعض الناس يأخذون عليه شغفه بالخمر أكثر مما ينبغى قليلا ، لكنه ، وان سكر ، لم يكن صخابا ولا منفرا • وكان أبى يقول ان فى ساعى البريد عيبا واحدا : كان يؤثر الشراب وحده ، فى البيت ، على الشراب مع الصحاب • لكنه لم يكن ليرفض ـ مع ذلك ـ كأسا من النبيذ ، عند تسليم خطاب مسجل •

الا أن الخطابات الآتية من فيلادلفيا لم تكن ـ لسوء الحظ ـ تأتى دائما بما يرضى ويسر الخاطر • فقد كانت تنبىء بحوادث تقع فى العمل أحيانا ، بل عرفت بضع حالات ـ وان كانت نادرة ـ لم يعن الرجال فيها باقتصاد شىء ما ، لعائلاتهم، أو كفوا تماما عن الكتابة اليها • الا أن زوج جويديتا بز الجميع فى غرابة سلوكه • فهى لم تتلق دولارا واحدا منه ، بل لم تتلق أى خطاب اطلاقا ، وان كان من المعروف ، عن طريق القرويين الآخرين الذين هاجروا الى نفس المكان ، أنه كان يشتغل بعمل حسن ، وانه كان يفاخر بما يرسله للبيت، بانتظام ، من نقود • وانحل اللغز بعد بضعة أسابيع من محاولة جويديتا الانتحار • وعندما تسربت الأخبار بأن نيكولاى ساعي البريد اختلس كل الخطابات التى كانت مرسلة باسم المرأة الشقية ، أخذ السكان جميعا بالدهش ، والفزع • ولعل ساعي البريد قد أفلت ، باختفائه ، من الموت على يد الاهالى • بيد أن روع هذا الاكتشاف ظل يحوم حول القرية ، ولم يكن

بوسع أحد أن يكف عن الكلام فيـــه ، وكان أبى - بعكس المألوف من عادته - يشارك الناس فى ثورتهم تلك ، ويجد فى ذلك كله تأييدا لقلة ثقته بالسكيرين المستوحدين الفرادى •

وما زلت أذكر أن أبى دعا ضيوفا الى البيت ، بعد رحلة خرجوا فيها جميعا للصيد ، وكان الحديث ما يفتـــأ يرتد الى ساعى البريد ، وقد كان هاربا لم يعثر عليه بعد •

وقال أحـد الحاضرين لأبى : افتــرض أنك كنت تتعقب أرنبا ، فى أحد الايام ، واذا بك تقع على ساعى البريد فجأة ، ماذا تفعل ؟

فقال أبى ، فى جد : لسـت أطمئن الى نفسى فى أن أقاوم اطلاق الرصاص عليه •

وكان الضيوف يشربون القهوة ، عندما صدر عن حديقـة الخضروات وراء البيت أصوات نقيق الدجاج المضـــطرب ، وهيجانه •

وقال لى أبى : اذهب لتر ما هناك ، لعله كلب ضال •

وكان يوجد فى الطرف الأقصى من الحديقة ، بين الصف الاخير من صفوف الطماطم المزروعة ، وبين سور الشجيرات النامية على شط النهر ، خندق عميق كنا نرمى فيه ، قبـــل ذلك ، بالسباخ • وكان ساعى البريد يقعى فى الخنـــدق ، كحيوان مذعور • ولم أكن أنكر عليه آثار القـــذر ومشـــاق الهرب البادية عليه ، بل أنكرت فى وجهه تلك النظرة المنهوكة القانطة الخائفة ، فلم أعثر فيـــه على ذلك العم الخير الكريم الذى طالما ألفت رؤيته ، بطيبة قلبه ، وفرحه ، ودعة جانبه •

وقال : أخبر أباك أننى هنا •• سأسلم نفسى للكارابنييرى ، ولكن يجب أولا أن أكلمه •

وجريت راجعـــا الى البيت ، وقد تملكنى الذعر • لم أكن أعرف ماذا أفعل • وتمتمت ببضـــع كلمات لا رابطة بينها ، وان كان تأتى لى أن أقول ، اذ كان أبى على وشك الذهاب الى الحديقة : كان هناك كلب ، ولكنه ذهب الآن •

وضحك الجميع على قلة شـــجاعتى ، ولما بقيت أرتعش ، ووجهى لا ينجاب عنه الشـــحوب ، أرسـلنى أبي الى الفراش لأنام •

وعندما انصرف الضيوف جاء أبى ليرانى ، وسألنى :

ـ لم يكن هناك كلب ، أليس كذلك ؟

ـ لا ••

ـ من كان هناك ؟

ـ أنت تستطيع أن تخمن •

ـ ما زال هناك ؟

ـ فى الخندق ، بالقرب من شجر السرو •

ـ هل قال شيئا ؟

ـ قال انه سيسلم نفســه للكارابنييرى ، ولكنه يريد أن يكلمك أولا •

وقلت ، بعد فترة :

ـ هل تقسو عليه ؟

فقال أبى :

ـ انه ضيفنا الآن •

نيكولا موسكارديللى : (١٨٩٤ ـ ١٩٤٣)

كان أول كتبه « أغنية روما » يعالج مجالى روما المختلفة المقدس والعلمانى منها ، والعتيق والحديث • ووصف الكتاب بأنه من « الصوفية الشاعرية » • ولا يصعب الاهتداء الى تلك النغمات الغنائية فى قصصه القصيرة ـ ومنها التى نختارها له ـ ولا تخفى فيها حساسيته الدقيقة المرهفة الانامل • فهو لا يعنى بالحبكة المتقنة ، وعنصر الرواية فى قصصه أدنى أهمية من دراسة موقف أو شخصية ، بل تطريزها •

« وجه القدر » هى مأساة صغيرة لبراءة مخدوعه ـ دون أن تعى ببراءتها ولا بالخداع ـ والقدر مرموز بطبيب أخن يلهج بعباراته الريفية الوقع ، ويلبس نظارة ذهبية الاطار من طراز قديم • والأدوات التى يلعب بها القدر هى محبة أم ، وسذاجة طفلة تسلم مصيرها الغض لمباضع لامعة ، ولعينى أمها الواقيتين الفاهمتين المشاركتين ـ برغمها ـ فى مؤامرة ساذجة لا حول لها أمامها ، تافهة وان كانت حبلى بالدلالات •

ثم تنتهى لعبة القدر الصغيرة ، بل وتنسى ، ولكنها تترك ندبها الأول لجرح قاطع فى نفس كانت حتى تلك اللحظة صافية النسج ، ناعمة الجلد • والندب الاول يرم ويلتئم ، لكنه ارهاص بندوب الحياة المحتومة ، وجراحاتها اللاحقة التى تخبئها للنفوس جميعا • وفى البثر الصغير الاول ترشيح للآلام المثخنة التى هى ميراث الحياة نفسه ، بمجهولاتها ، بأمنياتها النازعة أبدا نحو تحقق لا يدرى واحد على الاطلاق الام ينتهى ، وكيف تطلع عليه شمس غد مأمول لا ضمانة فيه ، ولا ضمانة له •

وجه القـــدر

(نيكولا موسكارديللى)

تردد الأبوان كثيرا ، فقد كانا ينتظران أن يقرآ فى صحف المساء أن التطعيم من الجدرى لم يعد ضروريا . ولكنهما أدركا أنه ينبغى أن يتخذآ قرارهما ، فى النهاية . فجمعا أشـــتات شجاعتهما ـ كانت حياتهما فعلا هي ابنتهما الصغيرة ـ وذهبا الى الطبيب ليعدا الترتيبات اللازمه .

وقال لهما الطبيب ، بصـــوته الاخن الذى يتميـز به رجال الطب ، هذا الصوت المدرب حتى لا ينم عن انفعال ما :

ـ لا داعي اطلاقا للقلق يا سيدتى . فلنر الآن ، ما اليوم؟ الاثنين ؟ عظيم . هاتي البنت يوم الأربعـاء ، وأنبوبتين من اللقاح . وستظل الطفلة فى حالة عادية طوال نهـار الاربعاء ، وليلته . ولكن راقبيها مع ذلك بعناية ، على سـبيل الاحتياط فحسب . ويوم الخميس بعد الظهر ترتفع حرارتها ارتفـــاعا طفيفا ، وترتفع أيضا أثناء الليـل . وتظل عند حـوالى مائة درجة يوم الجمعة بأكمله . وتنزل الحرارة يوم السبت . ويوم الاحد بالكثير تعود تماما للحالة الطبيعيـــة . فلا داعى للقلق أبدا ، كما ترين . نحن كل يوم نجرى مئات التطعيمات .

وأصغت الأم ، خائفة قليلا ، تحدق فيــه ، دون أن يغيب نظرها عن ابنتها التى كانت قد ذهبت الى دولاب ذى واجهـة زجاجية ، وأخذت تحدق فى المباضـــع والمقابض والمشـــابك اللامعه ، وقد سحرها بهاء هذه اللعب البـاردة المصـــقولة ، واستدار الطبيب لينظر اليها ، وقال :

ـ لويزيللا ، ســترجعين يوم الاربعـاء هنـــا ، مع ماما ، وسأعطيك شيكولاته . تعدينني أن ترجعي ؟ أليس كذلك ؟

فرفعت البنت عينيها الى أمها فى ارتباك •

ـ قولى للدكتور « أشكرك » ، انظرى كم هو لطيف معك • قولى له انك راجعة يوم الأربعاء •

فهتفت الطفلة : نعم !
وأخذتها الأم بين ذراعيها ، وحيت الطبيب ، وخرجا •

وظلت لويزيللا هادئة يومها ـ كدأبها فى الأيام الاخرى • إلا أن شيئاً كان الطبيب قد قاله ، كان يثير فيهـا الضـيق والكرب معا • شيئا ما ، وكانت تنظر الآن الى الشارع ، الى أولى فوانيس الشارع التى أوقدت ، وكان خيالها البارع يبنى تخاييل طفلية خلف وهج المصابيح ، كما كان يبنى من قبـل خلف انعكاسات الأدوات الجراحية الفضية المغلق عليهـا فى الدولاب الزجاجى •

ولكن سحابة طفيفة كانت معلقة من الآن فى ذهن أمهـا وكانت تحتضن بنتها الرقيقة البريئة بعاطفة جـديدة لم تكن تشعر بها من قبل •

وفي المساء ، عندما ذهبت معها لتضعها في السرير ، ظلت جالسة بجانبها ، ترقبها وهي تنـام ، ورأت ظلال النـوم ، بفروقها الواضحة ، تهبط واحدة بعد واحدة ، كظلال طيور هاربة محلقـة ، لا تكاد تنبعث في الوجه الصـغير بتكمش النعاس ، ثم ينفتح الوجه بابتسامة سريعة ذاهبة ، ولا يكاد يعتم عتمة خفيفة اذ تغمض عينيها وتنام • وذهبت ضـيفا فى عالم شد مايتباين عن العالم الذى خلقته وراءها والذى مازال أبواها يقطنانه • وقد كان يمكن أن تكون هى نفسـها حلما بيـن أحلامهـا • ونهضت الأم ، بغاية الهدوء ، تكاد تحبس أنفاسها ، كما لو كانت تخشى أن يتشتت « الحلم » •

وتسربت الشمس ، في الصباح التالى ، بين الضلف ، وهي

تقوم بذلك العمل كشخص يقوم بحراسة يومية صامتة ، ورحبت بها الطفلة بصيحتها الفرحة المعتادة • ولم يكن فى ذاكرتها شيء من اليوم السابق ، وبدا لها أن حياتها توشك أن تبدأ بداية جديدة ، ككل يوم • لكن أمها لم يطاوعها قلبها أن تبتسم كالمعتاد ، اذ كانت سحابة المساء القادم تتزايد ثقلا، وتغيم على ضوء النهار • وعادت الطفلة مرة أخرى الى عالم لعبها ، فأخذت تثرثر لهم في هدوء ، دون توقف • وعندما قالت لها أمها ، وهى خارجة لشراء أنبوبتي اللقاح ، أنهما تخرجان لشراء حلوى ، وثبت الطفلة مبتسمة ، ورمت بذراعيها حول عنق أمها •

وبعد ظهر الأربعاء أخذتها أمها بين ذراعيها ، كما لو كانت قد تذكرت ـ هى نفسها ـ الآن فقط • وذكرتها بالشيكولاته التي وعدها بها الدكتور • وكانت الانبوبتان فى حقيبتها ، وفى قلبها خشية غير قليلة • وتركا البيت الذى كانت تدفئه أشعة الشمس ، كما تدفىء السطوح والشوارع ، ولكن لا دفء فى قلب الأم • وكانت تتعلق بها سحابة من شعور كالندم ، الندم لأنها تخدع براءة طفلتها ، وتخونها • وكانت البنت تنظر لها ، عند كل محطة يقف عندها الترام ، كما لو كانت تذكرها بأنه ينبغى أن ينزلا • أما الأم فقد كانت تتمنى ، من الناحية الأخرى ، ألا يصلا أبدا • وطفقت تتمنى أن تأتى بضعة شوارع أخرى ، حتى يتاح لها الوقت أن تقنع نفسها أن لا شيء هناك ، لا شيء بالمرة •

وقبل أن يمسها الطبيب أخذت الطفلة تصرخ • وكانت أمها تمسك بها ، تقدم ذراعها الصغيرة الوردية للطبيب ، لكى يجرى عليها القطوع ، وهى تقول أن لا شيء هناك • وسقطت الشيكولاتة من الطفلة ، فى محاولتها أن تتملص وأن تفلت ولكنها لم توفق • وما أن شعرت بنفسها بين يدى الطبيب الذي اتخذ الآن مظهرا غير محبوب بالمرة ، بالرغم من كلماته

الضاحكة ، حتى لم يقف بكاؤها عند حد · وكان يبدو أنهــا لم تكن تعانى من الألم بقدر ما تعانى احساســا بخيانة الثقة التى وضعتها فى هذين الكبيرين ، فلم يحفظانها·ولم تستغرق المسألة ــ بالطبع ــ أكثر من بضع لحظات ، وما أن وصــلت البيت حتى اســتعادت هدوءها · فلعل ذلك حدث كما تحدث هذه الامور فى الأحلام ، لا تفســير له ، ولكن لا أهميــة له بعد ذلك · وجهدت الأم أن تنسيها هذه الحادثة ، حتى كادت أن تقنع بنتها أنها أيضا قد خدعها الطبيب ، وأنهما انما ذهبا للطبيب لأنه كان يبدو لطيفا يحب الأطفال ، والآن ··· من كان يصدق ؟

ولكن بقى فى عينى الطفلة ظل أو شبهه تقريبا ، لا يسهل تشتيتها · وسرعان ما بهت هذا الظل بعـــد ذلك ، واختفى ، وعاد سناء الشمس يسطع من جديد فى داخل ذهنها الذى استعاد سكينته وسلامه · كانت تجلس على الأرض أمام علبة ضخمة مليئة باللعب من كل الأنواع ، وقد استغرقتها لعبهـا تماما ، فنسيت كل ما عداها · ولكنها كانت تنشج بشـــهقة بكاء بين الحين والحين، شهقة لاتتصل لابالماضى ولابالمستقبل· وكانت أمها التى تقف قريبة منها ، ترقبها بعناية من أشـعل فتيلة قنبلة وأخذ ينتظر انفجارها · أما الطفلة ، وقـــد أفرخ روعها الآن ، فقد كانت تسأل أسـئلتها ، كالمعتــاد ، عن كل ما يدور بأذهان الأطفال وحدهم من أمور محالة غريبة ·

ــ غدا ·

أجابتها أمها ، وهى ترتعش قليلا ، وصوتها مغلف بالكذبة التى على شفتيها ·

فرددت الطفلة بعدها :

ــ غدا ·

وكانت عيناها لامعتين حتى إن أمها اقتربت منها ، ومرت

بيدها ، كما لو كان ذلك قد جاء اتفاقا ، على جبهة الطفلة لتحس ما اذا كانت قد ارتفعت حرارتها . ومرت ساعات بعد الظهر الهادئة ، واحدة بعد الاخرى ، ببطء . وكانت الطفلة تتحرك ، فى كل ساعة ، لتقترب من العالم المجهول الذى لم تكن تدرى عن وجوده شيئا ، والذى كانت الأم تراه بوضوح ، كما يرى المرء أعمى يقترب من حافة هوة . ودخل الليل فجأة ، في غرفة النوم الدقيقة المؤثثة بأشياء دقيقة لا فائدة فيها ، والمستضيئة بحياة ألف طيف من الجنيات الصغيرة دعتها اليها كائن على قرابة بها . وجذب السرير الصغير الذى كانت تنام فيه البنت ، الى الخارج ، ككل مساء ، عندما أحست الأم بأرواح الحمى التى تحوم حول الطفلة ، جاءت فى ميعاد لم يكن بالامكان أن تتخلف عنه ، والمصباح الذى يتقد كل ليلة سيتقد هذه الليلة ، ككل الليالى، تقريبا . وعندما نامت بنتها الصغيرة ، بقيت الأم طويلا تحدق فيها ، كما لو كانت تحاول أن تعثر على اللحظة التى يبدأ فيها الصراع بين الجراثيم الخيرة والجراثيم الشريرة فى جسمها المسكين . وكانت الطفلة تتمتم كثيرا ، خلال الليل ، بكلمات غير مترابطة ، فى نومها . ورفعت يديها الصغيرتين أكثر من مرة ، كأنما لتحامى عن نفسها ، وترد غائلة شيء أو شخص .

وفي الصباح التالى لم تتلق الشمس صبحة الترحيب المألوفة ، ونامت الطفلة ، كزهرة لذعها الصقيع فى سريرها ، تريح وجنتها المشتعلة على المخدة ، وجفناها مسبلان علىعينيها المتمددين بالحمى .

وتحقق تشخيص الطبيب ، خطوة فخطوة ، فظلت حرارتها ترتفع طوال اليوم ، ويوم الجمعة ظلت مرتفعة من أول الصبح حتى آخر الليل ، كما تنبأ الطبيب بالضبط . ويوم السبت صباحا لم يعد لها أثر تقريبا . وتغلبت الطفلة على الحمى يوم

الأحد • وكان بوسعها أن تنهض يوم الاثنين ، دون أن تتذكر اطلاقا شيئا من المرض الذى اجتازته ، واستأنفت حديثها الذى انقطع مع أصدقائها الصغار المصنوعين من شعر الخيل والورق المقوى •

وكانت أمها تشعر بنفسها تعاني دوارا خفيفا ، من مشقة مراقبة كل مرحلة من مراحل تشخيص الطبيب • كان قد حسب حساب كل شيء ، بدقة تروس الساعة ، باليوم ، بالساعة ، حتى هبوط الحرارة والشفاء النهائى • ولكن الطفلة حتى عندما كانت قدماها على حافة الحمى ، كانت تردد كلمة « غدا » فى سلام وسكينة ، وقد أمنت تماما ، وسعدت • وسقطت فى الهوة ، غير واعية بشيء اطلاقا ، وبابتسامة على شفتيها •

وبينما كانت أمها تجلس الى حافة المائدة ، تدفن وجهها بين راحتى يديها ، كانت تواجه اللغز ، كشخص مبصر بازاء أعمى ، لكنها أيضا كانت تحس بنفسها عمياء ، وقد اختلط عليها الأمر ، غير عارفة ، على حافة هوة مجهولة ما • وتقف معها كل الكائنات المخلوقة التى تقول « غدا » دون أن تعرف أبدا ما اذا كان الغد سيشرق عليها • ورأت ، كما ترى فى المرآة ، المصائر الإنسانية تنسجها يد غير مرئية ، وسمعت ساعة تدق فى جلال ، تأتى بأحزانها المظلمة ، أو أفراحها غير المنتظرة •

وكانت الأم والبنت صامتتين هنيهة فى الغرفة الصغيرة • ثم أخذت الطفلة تؤرجح دميتها ، واستأنفت خيط حياتها البسيط الذى لا تعقيد فيه •

وعادت الأم بذهنها الى الطبيب ، وأحست أنها كانت أمام القدر وجها لوجه • وكان يرتدى نظارات ذهبية من نوع لم يعد شائع الاستعمال اليوم ، وله لحية خشنة ضاربة الى الاحمرار ، ويتكلم بلهجة صقلية خفيفة •

جيوفاني بابيني :

ولد في فلورنسا سنة ١٨٨١ • وقضى معظم حيـاته فيها ، الا أنه ـ في كثير من النواحي ـ أكثر الأدباء الايطاليين اليوم اهتماما بالمشاكل العالمية التي تعدو نطاق الاقليمية • وقـد اعتنق الكاثوليكية قبيل كتابته « قصة المسيح » في سنة ١٩٢١ • ثم أصدر أخيرا كتابه « الشيطان » الذي أثار الدوائر الكاثوليكية ، وحظر البابا قراءته على المؤمنين •

وقد ارتبطت أعماله بالصحف الذائعة الصيت في فجـر نشاطه الأدبي ، واسترعى الانتباه ـ قبل الحرب العالمية الاولى ـ كتابه « رجل منته » حيث يبدو فيه جزعه من العمى ، وهو جزع أصبح حقيقة واقعة ، بالتقريب في سنة ١٩٣٥ • وبالرغم من ذلك ، وبالرغم من عاهة في ذراعه اليمنى ، فقـد واصل عمله في الكتابة النشيطة التي لا تتهاون ولا تخور •

وأكثر اهتمامه بالمسـائل الانسانيه القائمة أبدا ، لكن الجانب الشاعري الخفيف من موهبته الخـلاقة يبـدو في مجموعات قصصه القصيرة •

وتنعكس في القصة التي نختارها له أطياف بعيدة لاهتمامه بالميثولوجيات والتخاييل ، واحساسـه مع ذلك بعنصر فاجع لا مفر منه في رغبات الانسان المحكوم عليه حتما بالفناء ، وقبل ذلك بالشيخوخة وذبول الشـباب ، وفي نزوعه الـدائم الى المتعة ، والازدهار ، برغم التجاعيد في وجهه ، والتجاعيد التي يتقبض بها نسج روحه الداخلي أيضا ، وفي حبوطه المقضي عليه به في النهاية ، اذ تتساقط بين أصابعه المرتعشة بالاشتهاء ، أوراق حياته الذاوية المميتة •

اليوم الذى لم يسترد

جيوفانى بابينى

لى ، من بين معارفى ، كثير من الاميرات اللاتى تقدمت بهن السن وان لم تنل من جمالهن • ولكنهن يعشن فى ضائقة مالية ، حتى ليغبطن أنفسهن اذا استطعن الحاق خادمة ، ترتدى حلة رسمية سوداء ببيوتهن • وقد دفعتهن الحاجة الى سكنى فيلات متداعيـة في توسكاني مثلا ، في احدى تلك البلاد القاصية ، تقف ، للحراسة ، على بابهـا المنقور فى السور ، سروتان يعلوهما الغبار •

فاذا صادفت أحد أفراد هذه الفصيلة في صالون كونتيسة أرملة قد خلفتها الأيام وراءها ، فعليك أن توجه اليها الحديث بوصفها « صاحبة السمو » ، وأن تتكلم بتلك الفرنسية التى تنتمى الى الطراز الدولى ، الكلاسيكى ، الذى لا لون له ، فرنسية « القصص الأخلاقية » للأب مارمونتيل ، أى فرنسية الطبقة الراقية • وسوف تجيبك هاته الأميرات ــ بلا شك تقريبا ــ فى اسهاب محبب دمث ، ما دمت قد سلكت سبيلك الى قلوبهن البائسة المليئة بالتراب وبفضول الحواشى ، كأنها خطب القرن السابع عشر ، وسوف تجد عندئذ أن الحيـاة ، حتى على هذا النمط ، يمكن أن تكون مقبولة ، وأن أمهاتنـا لم يكن بما يبدو من الغباء لأنهن أتين بنا الى هذا العالم •

وكم من أسرار غريبة همست بهـا أميراتى الشيخات الجميلات ، فى أذنى • وكن لا يفتأن يذررن البودرة على وجوههن ، فهن يعشقن ذلك ، ويعشقن أكثر من ذلك أن ينطلقن فى ثرثرة طويلة ذات شجون ، بلا هدف ما • وهن ألمانيات الاصل جميعا ــ الا واحدة من أصل روسى ، كما لو كان ذلك قد جاء عرضا ــ ولكن فرنسيتهن الممتعة التى

ترجع للعهد القديم مست نفسى أكثـر من مرة • وقد ذاب قلبى ، فى مثـل تلك اللحظات ، وكان من الممكن ـ عنـدئذ ـ أن أروح أصعد التنهدات والزفرات ، كما لو كنت فتى عاشقا أضواه الهيام •

كنت ذات مســاء ، ولم يتأخر الوقت بعـد ، فى غرفة استقبال باحدى الفيللات فى توسـكانى • وكنت جالسـا فى مقعد مريح من طراز الامبراطورية بالقرب من المائدة ، وأكواب الشاى الخفيف تنهال على ، وأنا أشـارك احـدى أميراتى الصمت • وكانت من أروع أميراتى جمالا ، وأكثرهن طعونا فى السن •

كانت ترتدى السواد ، وكان وجهها مغطى بقناع أسـود خفيف • وكان شعرها ، وقد كنت أعرف أنه أشـيب ، وان كان مازال فيه شىء من التمـوج الطفيف ، مغطى بقبعتهـا السوداء • وثم هالة سوداء تحيط بهـا ، فتحيرنى وتأسرنى ، وتكاد تغرينى بأن هذه السيدة ليست الا شبحا لم تظهـره الا ارادتى وحدها • ولم يكن فى ذلك من الغرابة بقدر ما يبدو، فقد كانت الغرفة معتمة جدا ، ولم تكن الشمعة الوحيدة تمـد وهجها فيما وراء المذرور من البودرة • أما كل شىء فيمـا عدا ذلك ، فقد كان يندغم فى العتمة ، حتى خيـل لى أننى أرى رأسا مهتزة ، وحدها ، أمامى ، ووجها منفصلا عن جسـمه ، يطفو على بعد متر واحد من الارض •

لكن الاميرة كانت قد بدأت تتكلم ، فتشتتت بذلك كل تلك الاوهام • وقالت ، بالفرنسية :

ـ يا سيدى ، اصغ الى • حدث لى منذ أربعين عاما ، عندما كنت من غضوضة السن ، بما كان يتيح لى الحق فى أن أبدو بما يروق لى من مظاهر الحماقة والجنون •

وأخذت تروى لى ، بصوتها الجذاب، احدى قصصهاالغرامية

التى لا عداد لها . وقد استحال أحد الجنرالات الفرنسيين - فى تلك القصة - ممثلا من حبه لها ، وقتله فلاح مجنون ذات ليلة .

وكنت قد ألفت منها شطحات الخيال هذه ، وكنت أصبو الى سماع شىء آخر أكثر اغراقا فى الخيال ، وأكثر بعدا عن الواقع وامعانا فى الغرابة . ورضيت الاميرة فى النهاية بأن تلبى طلبى .. وقالت .

- أنت تدفعنى اذن لان أخبرك بسرى الاخير ، سرى الذى لم أفشه لاحد حتى الآن ، اذ هو أغرب من أن يصدق .. ولكنى أعرف أننى سأموت فى خلال شهور قليلة ، قبل أن ينقضى الشتاء ، ولست أظن أننى سأجد من تشوقه كل هذه التفاهات خيرا منك .

يعود هذا السر الى العهد الذى كنت فيه فى الثانية والعشرين من عمرى .. كنت عندئذ أروع أميرات فيينا جمالا ، ولم أكن بعد قد قضيت على زوجى الاول .. فقد حدث ذلك فيما بعد - بعد سنتين - وكنت قد بدأت عندئذ فى الواقع أهيم حبا ب ... ولكن فلندع ذلك الآن .

حدث اذن فى نهاية السنة الثانية والعشرين من عمرى أن تلقيت زيارة من سيد كهل ، حليق الذقن ، يضع على سترته نياشين كثيرة ، وطلب منى أن أنفرد به خاصة لمدة دقيقتين . وعندما أجبته الى طلبه قال :

- ان لى ابنة أعبدها ، وهى مريضة فى اللحظة الراهنة ، ويتحتم على - بأى شكل - أن أمنحها حياة جديدة وقوة جديدة .. ولذلك فعلى أن أشترى لها ، أو أقترض لها ، بضع سنوات من الشباب ، فاذا تكرمت بأن تعطينى سنة واحدة من حياتك ، فسوف أردها إليك شيئا فشيئا ، يوما بيوم ،

قبل أن تنتهي أيامك .. فعندما تستكملين سنتك الثانية والعشرين ، ستجدين نفسك بدلا من الانتقال الى السنة الثالثة والعشرين ، قد أصبحت أكبر عمرا بسنة واحدة ، فتبدأين سنتك الرابعة والعشرين . وأنت مازلت غضة السن جدا ، ولن تكادى تشعرين بتلك الوثبة في الزمن . ولكنني سأرد اليك ـ في النهاية ، أيامك الثلاثمائة والخمسة والستين بأكملها ، يومين أو ثلاثة في كل مرة ، وعندما تتقدم بك السن ، سيكون بوسعك أن تطالبي ـ كلما عن لك ـ ببضع ساعات ثمينة من الشباب الحقيقي ، حيث تعود اليك ـ على غير انتظار الصحة والجمال ، ولا يدخل في بالك أنك تكلمين مجنونا أو أحمق . فلست الا أبا يائسا وقد صليت الى الرب وتضرعت اليه ، فمنحني القوة أن أعط مالم يعط لآخر ، وقد جمعت ثلاث سنوات لابنتي بمجهود كبير ، ولكنني مازلت بحاجة الى بضع سنوات أخرى . اعطني سنة من حياتك ، ولن

ولم أكن في تلك الايام غريبة عن المغامرات الطريفة ، ولم يكن ثم مايعد مستحيلا في ذلك المجتمع الامبراطوري الذي كنت أعيش فيه .. ولذلك رضيت بأن أعقد هذا القرض الغريب . وبعد بضعة أيام تقدم بي العمر سنة كاملة ، ولم يكد يلحظ أحد شيئا على الاطلاق . وعشت حتى بلغت الاربعين حياة سعيدة ، دون الالتجاء الى تلك السنة التي أعطيتها على سبيل الوديعة على أن تسترد فيما بعد .

وكان السيد الكهل قد ترك لي عنوانه مع العقد ، وطلب مني أن أكتب له شهرا على الاقل قبل الميعاد ، كلما أردت يوما أو أسبوعا من الشباب . وقد قطع على نفسه العهد أنني سأتلقى كل ما أطلب من ذلك في الميعاد المضروب .

وعندما انقضت السنة الاربعون من حياتي ، وأخذ جمالي يذوى ، اعتكفت بعيدا عن العالم في احدى القلاع القليلة التي

بقيت للعائلة ، ولم أكن أذهب الى فيينا أكثر من مرتين أو ثلاثا في السنة . نكنت أكتب أولا الى مديني ، ثم أنطلق الى حفلات البلاط الراقصة في صالونات العاصمة ، يانعةالسن جميلة ، كما كنت في الثالثة والعشرين .. حتى دهش كل من كان قد عرف انحدار جمالي الى الذبول .

وكم كانت غريبة تلك الليالى قبل عودتى الى الظهور .. كان يأخذنى النوم مجهدة ذابلة ، ثم أصحو فى الصـــباح مرحة طائرة اللب من الفرح ، كعصفور لم يكد يتعلم الطيران ، ثم اجرى الى المرآة وقد اختفت كل الغضون من وجهى ، وعاد جسمى طريا لدنا ، واستعاد شعرى شقرته ، وشفتاى لونهما القانى ، حتى لاكاد أن أقبلهما أنا نفسى فى وله .

وكان المعجبون بى فى فيينا يفقدون رشادهم من الهيام بى، كل بدوره ، ويعجبون للمعجزة ، وكانوا يتهموننى بالسحر .. ولم يكن بوسعهم بالفعل أن يدركوا شيئا مما يحـدث .. ولا تكاد فترة الشباب التى طلبتها تنقضى ، حتى أكون قد أخذت عرتى وعدت الى القلعة على عجل ، حيث كنت أرفض الزيارات بلا استثناء .. وفى مرة من المرات ، كان كونت شاب من بوهيميا قد هام بى وجدا فى احدى زياراتى لفيينا، واستطاع أن ينفذ ـ بشكل ما ـ الى الجناح الذى كنت أشغله فى القلعة .. وعندئذ أغمى عليه تقريبا من الدهش ، اذ رأى كيف كنت أشبه حبيبته ، وكيف كنت مع ذلك ذابلة ، وقد رث شبابى بالقياس الى تلك التى أسرت لبه فى شوارع فيينا .

لـكن أحدا لم يستطع أبدا بعد ذلك أن يقطع على عزلتى المختارة ، التى لم تكن تؤنسنى فيها الا تلك البهجة الغريبة ، والـكآبة العميقة ، التى امتازت بهما فترات الشباب النادرة ، فى انحدارى الفاجع الذى لم يكن شيء ليوقفه نحو الشيخوخة . حاول أن تتصور الحياة الغريبة التى كنت أحياها ، شهورا

طويلة من الشيخوخة الموحشة تدفئها نيران لايام قلائل ثمينة سرعان ما تخبو من الجمال والهوى ٠

وقد كانت تلك الايام الثلاثمائة والخمسة والستون ، في أول الامر ، تبدو زادا لا ينفد ، وخيل الى أنها لن تنتهى قط ، فأسرفت فى تبذير كنزى ، وأكثرت من مطالبة مدينى الغريب ٠ لكنه كان دقيقا كل الدقة ـ بشكل مخيف ـ وقد ذهبت مرة الى بيته ورأيت دفاتر حساباته ، فلم أكن الوحيدة التى عقدت معه عقد من هذا النوع ، وأدركت كيف كان يراجع ديونه بغاية التدقيق ، ورأيته ابنته أيضا ٠٠ امرأة شديدة الشحوب تجلس على الشرفة تحبط بها الزهور ٠

ولم أستطع قط أن أكتشف طريقته فى الحصول على الحياة التى كان يردها ـ على الفور ـ أقساطا يومية ، وان كان لدى مايدعو للظن بأنه كان يعقد قروضا جديدة ٠٠ كيف كان حال النساء اللاتي أعطينه تلك الايام التى كان يردها لى ؟ ٠٠ كم كنت أحب أن ألقى احداهن ٠٠ لكنى ، بالرغم من أسئلتى الكثيرة الملتوية الماكرة ، لم يقع فى حظى أن أعثر على واحدة منهن ، ولعلهن لسن من الغرابة بقدر ما أظن ٠

وكيفما نظرت الى المسألة ، فان هذا الرجل شائق الى حد غير مألوف ، وموفق كل التوفيق فى حساباته ٠ ولن تستطيع أن تتصور كيف أضحت حياتي مروعة ، اذ أعلننى ذات يوم ، في هدوء أصحاب البنوك ، أنه لم يبق لى الا أحد عشر يوما ٠ ولم أطالبه ـ خلال تلك السنة بأكملها ، بيوم واحد ٠ بل كادت تغريني فكرة أن أمنحه الاحد عشر يوما هدية حتي أضع نهاية لعذابي ٠ وبوسعك أن تفهم السبب ٠ ففي كل مرة كنت أسترد فيها شبابى ، كانت لحظة اليقظة أفعل عذابا ، اذ أخذت الشقة تزداد ـ بمرور الزمن ـ بين حالتى العادية ، وبين حالى فى الثالثة والعشرين من عمري ٠ ولم يكن بمقدوري المقاومة ٠

كيف تتصور أن امرأة عجوزا وحيدة تعسة بوسعها أن ترفض مهلة يوم أو يومين من الجمال والحب ، من الفتنة والبهجة ، اذ تسنح لها الفرصة ؟ .. أن تكون محبوبة يوما واحداً مشتهاة لساعة واحدة ، سعيدة لحظة واحدة .. لكن السن لم تتقدم بك بما تدرك معه مثل هذه النشوة .

لكن احتياطى الايام قد استنفد الآن تقريبا ، وحسابى على وشك أن يغلق حتى الابد . تصور . يوما واحدا فقط أطالب به ، ثم أمسى عجوزا الى الابد ، مقضيا على بالموت . يوما واحدا من الضوء ، ثم يأتى الظلام الابدى .. اعتبر ، ارجوك ، كل مأساة حياتى غير المنتظرة .. وقبل أن أطالب بذلك اليوم ..

متى أطالب به ؟. وماذا أفعل به ؟.. اننى لم أظهر فى فيينا فى قناع شبابى ، منذ أكثر من ثلاث سنوات ، ولم يعد أحد يذكرني تقريبا . وسوف يبدو جمالى شبحا من الماضى .. لكنى أتوق الى عاشق . عاشق لا تردعه الاعتبارات السخيفة . عاشق مضطرم بالهوى ، أتوق لان يحتضننى أحد مرة أخرى . وسوف يصبح هذا الوجه المغضن طريا موردا مرة اخرى ، وتشرب شفتاى من النشوة للمرة الاخيرة . شفتاى البائستان المشققتان وقد نضب الدم منهما ، كم تشتهيان أن تعودا قانيتين مرة أخرى ودافئتين يوما آخر أيضا ، يوما واحدا فقط ، للعاشق الاخير ، للقبلة الاخيرة .

لكنى لا أستطيع أن أعقد عزمى . ليست لدى القوة لانفاق تلك العملة الصغيرة الاخيرة من الحياة الحقيقية الباقية لى .. ولا أعرف كيف أنفقها ، وبى مع ذلك رغبة مجنونة فى إنفاقها .

يا للاميرة البائسة العزيزة ! وقد رفعت الآن قناعها الخفيف ، وشقت دموعها خطوطا رقيقة فى خديها المذرورين بالبودرة ، وقد غصت بدموعها .. لكنها خبستها ، فقد

كانت أكثر أرستقراطية وأكرم محتدا من أن تطلق العنان لعاطفتها ، فحالت الدموع دونها ومواصلة الحديث • وعندئذ أحسست بحافز لا يقاوم فى أن أسكن من روع هذه السيدة العجوز الفاتنة ، مهما كان الثمن ، وركعت تحت قدميها — أجل تحت قدمى أميرة مغضنة الوجه ترتدى السواد — وأخبرتها أننى أحببتها أكثر من أى سيد آخر هام بها حبا فى أى وقت مضى ، وضرعت لها بأكثر ألفاظى المعسولة غواية أن تمنحنى أنا وحدى يومها الاخير من الشباب الباهر •

ولست أذكر بالضبط كل ماقلته ، ولكن كلماتى لاشك لامست قلبها ، فقد وعدتنى — وان كان ذلك فى لغة مسرحية — بأن أكون عاشقها الاخير ، ليوم واحد ، بعد شهر من ذلك التاريخ • وجدت يوما ، فى نفس الفيللا ، وغادرتها فى أشد الاضطراب بعد أن قبلت يديها الرقيقتين البيضاوين •

وفى طريق عودتى الى المدينة ، فى ضوء الهلال البازغ ، أطلقت العنان لامتحان نفسى امتحانا صارما ، وتكشفت دوافعى ومنازعى ، فى نوع من الشفقة الساخرة المفتعلة ، ولكنى كنت أحفظ قدر أميرتى بأكثر مما يتيح لى أن أصدق كلمة واحدة من روايتها •

ومر الشهر طويلا لا ينقضى ، أطول شهر فى حياتى ، وقد كنت وعدت حبيبتى المستقبلة ألا آتى أطلبها الا فى نهاية اليوم الموعود ، واحتفظت بوعدى • وجاء اليوم ، بالرغم من كل شىء ، أطول يوم فى ذلك الشهر الطويل • وأتى المساء أخيرا ، وبعد أن اتخذت هندامى كأحسن ما أستطيع ، اقتربت من الفيللا بقلب خافق وبخطوات مترددة •

ورأيت على البعد أن النوافذ مضاءة كلها ، على نحو لم أعهده أبدا من قبل ، ورأيت البوابة مفتوحة عند اقترابى ، والشرفة مزدانة بزهور ضخمة • ودخلت الفيـــللا ، ومررت بغرفة

الاستقبال حيث كانت الشموع كلها مضاءة في شمعدانين غريبين •

ودعيت للانتظار ، فانتظرت ، ولم يأت أحد ، وكان البيت كله ساكنا الآن ، لا نأمة ولا حس • وكانت الانوار ماتزال تضطرم ، والازهار تنفث عبقها في الوحدة • وبعد ساعة من الانتظار والتوتر لم أطق كبح جماح نفسي ، فدخلت غرفة الطعام •

كانت المائدة معدة لشخصين ، محملة بسرف من الاطعمة والفواكه والازهار ، ونفذت الى صالون صغير ، يشيع فيه ضوء خافت مهجور ، ثم أتيت أخيرا الى باب كنت أعرف أنه باب غرفة نوم الاميرة ، فطرقته مرتين أو ثلاثا لكنني لم أتلق ردا • فظننت أن للعاشق الحق في امتيازات خاصة ، وأن لي أن أستغني الآن عن الاتيكيت المألوف ، واستجمعت شجاعتي وفتحت الباب ، وتوقفت على العتبة •

كانت الغرفة غارقة في فيض من الملابس الباذخة ، منثورة في كل مكان ، كما لوكانت في اثر نوبة غاضبة من النهب والسلب وكانت أربعة شمعدانات تلقى ضوءا قويا غير ثابت •• وكانت الاميرة ترقد بطولها على كرسي مريح أمام المرآة ، ترتدي رداء من أكثر أردية المساء التي رأيتها في حياتي فخامة وترفا • وناديتها فلم تجب • فاقتربت ولمستها فلم تتحرك • وعندئذ لاحظت أن وجهها هو نفس الوجه الذي طالما رأيته ، أصفر ، وأكثر حزنا عن المألوف ، وبه شيء من الذعر • وضعت يدي على شعرها فلم أحس بنفسها ووضعت يدي على صدرها لكن قلبها لم يكن يخفق • كانت الاميرة البائسة قد ماتت • ماتت في هدوء ، على غرة ، وهي تنتظر أمام المرآة عودة جمالها •

وجدت خطابا على الارض بجانبها ، يفسر سر نهايتها غير

المنتظرة ، وقد كانت به بضع سطور مكتوبة بخط عسكرى منتصب :

« أميرتى العزيزة

شد مايؤسفنى أن ليس باستطاعتى أن أرد لك على الفور ذلك اليوم الاخير من الشــباب الذى أدين لك به • فلست استطيع أن أجد اليوم نساء من الذكاء بحيث يصدقن وعودى الغريبة • وابنتى فى خطر •

اننى أقوم بمحاولات أخرى وسوف أنبئك بالنتائج ، فأنت تعرفين رغبتى المخلصة فى ارضائك حتى النهــاية • وأرجو يا أميرتى المبجلة أن تصدقينى •

المخلص •••

وكان الامضاء غير موجود •

لويجي بيراندللو

ليس بيراندللو بحاجة الى التعريف • وقد كانت حياته ، قبل أن يعين فى الاكاديمية الايطالية ، وقبل أن يحصل على جائزة « نوبل » ، حياة موجعة تحيط بها الفواجـع فتتعقب أيامه ولياليه دون مهلة ، فالفقر والجنون ومحاولات الانتحار والمرض ودخول الدير والموت والعاهات والفظاعة والوقوع فى الأسر ، كلها صاحبته ورافقته بين أفراد أسرته الحميمة• وقد كان يعمل مدرسا للادب فى معهد الدراسات العليا بروما •

وكتب الى جانب قصصه القصيرة التى تزيد على الاربعمائة، نحو عشر روايات ، وله فصوله النقديةالكثيرة• وأروع أعماله بالطبع هى مسرحياته الاربعون التى تقف صروحا شـامخة ، ومعابد تدور فيهـا قصة حياة الانسـان • وهى وان كانت كوميديات الا انها ليست مسلية •

« ان لبعض الكتاب شعورا أعمق باحتيـاج روحى لا يدعهم يقتنعون بالصور والاحداث والمشاهد ، فلا يقفون عنـد معنى محدد خاص من معانى الحياة • ولهم نزعة أقرب الى أن تكون فلسفية • وانا لسوء الحظ من هؤلاء — من هؤلاء الذين ، فى الصورة المحسوسة التى يجب أن تبقى حية تتمتع بكلحريتها الخاصة ، انما يبحثون فى صميمها عن معنى آخر يكسبهاقيمة ومغزى »

فهذا الانتاج الضخم اذن بحث مستمر لاستجلاء الدلالات •

وبيراندللو سيد لا منازع من سادة فنه ، أو فنونه جميعا •

وأصداء الفواجع التى عجنت بها حياته نفسها هى أصـداء الفاجعة الانسانية الكلية ، ولكن له فيها بسماته ، وأفراحه ، وعزاؤه ، ورفق بالانسان ورحمة بضعفه ، وله نشدانه الذى لا يفتر للقيمة ، والمعنى •

وعبثاً أن نجمع شتات مقومات أعماله فى عبارات قصيرة ، مهما كانت موحاة • فهو من الشيكسبريين القلائل الذين تكاد تمتد أجنحتهم العريضة على كل أطراف المسرح الانســانى فيطوون تحتها كل أصناف الشخوص ، والمواقف •

ووراء براعته الفنية الفائقة حدوسه المستبصرة الوضــاءة النافذة ، ومع نضوجه الشيخى الجليل شاعرية فتية رقراقة

وقد اخترت له قصتين ، لا تمثلانه كله قطعا، وانما يستبين فيهما ـ فقط بضعة من جوانب سيادته الفنية •

وليست « جنون القمر » مجرد حكاية طــريفة عن الريف الايطالى ، بل فيها صلة بتلك القوى الغائرة فى عمق الطبيعة حتى لتوشك أن تصبح غيبيــة ، وحتى نعود فنحس بالسحر الاسطورى البدائى والالغاز الرئيسية الجوهرية التى تنبع عن النفس وموقفها من العالم ، تلك القوى الغامضــة المظلمة التى ألهها الناس حينا ، وما تزال تتمتع فى كوامنهم بسطوة الالهة

وفى وسط الازمة الكونية تجرى نزعات الناس الصــغيرة مجراها الصغير المألوه • وتنعقد صخرة موقفهم المعتاد

و « الليل » قصيدة أخرى ، أبياتها من الامانى المحبوطة ، والمصائر المتحيرة ، والعزاء الكونى •

الليـــل

(لويجي بيراندللو)

مر القطار بمحطة سولمونا ، وبقي سيلفيسترو نولى وحده فى تلك العربة الحقيرة من عربات الدرجة الثانية ٠

وألقى بنظرة أخيرة نحو الشعلة المدخنة المرتجفة التي تكاد تطفئها ، عند كل هزة من هزات القطار ، قطرات الزيت التى تسقط فتكدر زجاج الوقاية المحدب المحيط بها ٠ ثم أغمض عينيه ، مؤملا أن ينام بعد هذه الرحلة الطويلة المجهدة (فقد كان الرجل يسافر منذ يوم وليلة) ، فينزع عنه هذا الحصر الذى يكاد يخنقه ، ويتزايد وطؤه عليه كلما اقترب القطار من منفاه ٠

أبدا ٠ أبدا ٠ أبدا ٠ منذ كم من الوقت كانت عجلات القطار الرتيبة الوقع تردد فى أذنيه هذه الكلمة ، طول الليل ؟

انتهت ، انتهت الى الأبد حياة شبابه المرحة بين رفقائه الخلى البال ، تحت الاقباء المزدحمة ، فى « تورين » الحبيبة ، انتهت هذه الانفاس الدافئة المألوفة التى يهب بها بيتهم القديم ، انتهت ، ما كانت تكفله له أمه من رعاية ومحبة ، وذلك الحدب الباسم فى نظرة أبيه الواقية ٠

لعله لن يراهما بعد الآن أبدا ، هذين الشيخين الحبيبين ٠ أمه ، أمه ، على الاخص ٠ آه ٠ كيف وجدها بعد سبع سنوات من الغيبة ، محنية الظهر ، مقددة ، يحيط بفمهـــا الفاغر من أسنانه شحوب كشحوب الشمع ٠ ولم تبق الا العناية بحيويتهما هاتان العينان المستكينتان الطاهرتان الحلوتان ٠

كان ينظر الى أمه ، وينظر الى أبيه ، ويصغى لحـديثهما ، ويلف بحجرات البيت ، ينقب فى كل شىء ، فأحس ان الحياة

في بيت أبويه قد تغيرت بالنسبة له وحده • ومنذ رحيله ، من سبع سنوات ، توقفت الحياة هنا ، وازدادت دكنتها أيضا

أأخذها معه اذن ؟ وماذا فعل بها ؟ أين اختفت هذه الحياة التي لم تعد تنبض فيه ؟ ربما ظن الاخرون أنه أخذها معه لكنه هو ، يعرف بالعكس أنه خلفها وراءه ، عند رحيله ، وهو لم يعد يجدها الان ، ويقر بأنه لن يستطيع أن يجدها بعد الان، اذن فقد حمل معه كل شيء •• وعندئذ أحس في هذا الخواء ، رجفة مميتة •

وبهذا القلق الذي يخنق قلبه ، عاد الى مقر وظيفته ، عند نهاية أجازة الخمسة عشر يوما التي صرح له بها مدير المدرسة الثانوية للبنين في مدينة سانت إنجلو ، حيث يعلم الرسم ، منذ خمس سنوات •

وقد كان قبل ذلك أستاذا في كالابريه ، سنة ، وفي بازليكاتا ، سنة أخرى • أما في سانت أنجلو ، وقد هزمته وأعمته ، حاجته الكاوية الجنونية لعطف يملأ الفراغ الذي يحس نفسه ضائعا فيه ، فقد اقترف حماقة الزواج ، فربط نفسه الى الابد بتلك البلدة •

فقد ولدت امرأته ، ونشأت فيهذه البلدة الصغيرةالجبلية الرطبة ، المحرومة من كل الرفاهيات ، بين الانحيازات والتعصبات الصغيرة الضيقة العمياء ، والتفاهات وغرابات المزاج ، وانسياب الحياة الرتيبة الخاملة في الريف : وبدلامن أن تغدو زميلته ورفيقته كانت تزيد من مضضه ووحشته ،بأن تشعره ، في كل لحظة ، بمدى غربته عن هذه العائلة التيكان ينبغي لها أن تكون عائلته ، والتي لم يتح فيها لأية فكرة من أفكاره ، ولأي شعور من مشاعره ، أن ينفذ اليها أبدا •

وولد له طفل ، وشعر ـ شعورا فظيعا بشعا ـ بأن هذا

الصغير أيضا ، من أول يوم ، غـــريب عنه ، كما لو لم يكن ينتمى آلا الى أمه وحدها •

ربما أصبح الطفل ولدهحقا لو أنه أستطاع انتزاعه عن هذا البيت ، عن هذا البلد ، وربما أصبحت زوجته نفسها زميلته حقا عندئذ ، ولعله يعرف عندئذ بهجة أن يكون له بيته،ومقره، لو أنه استطاع أن يطلب نقله من البلد ، اذ أن زوجته ـ التى لم تشأ أن تغير بلدها حتى فى رحلة صغيرة فىشهر العسل، حتى لكى تتعرف الى أمه وأبيه وأقاربه فى تورين ـ قد هددت بأنها تهجره ، ولكن لا تهجر أهليها •

ومن ثم فقد كان ينبغي أن يبقى ، وينتظر ، في هذهالوحدة المخيفة ، أن تستنيم روحه الى خمول كثيف •

وكم كان يحب المسرح ، والموسيقى،والفنون جميعا) لميكن ليعرف أن يتكلم عن شيء آخر ، ولذلك فقد ظل دائما يهيجه هذا العطش الذى يحرقه،كعطشه أيضا الى قدح من الماءالنقى• لا • انه لا يستطيع أن يشربه ، هو ، هذا الماء الثقيل ،البارد، الرملى ، ماء الآبار • وهم يقولون هنا انه غير ضار ، لـكنه يعانى ، منذ وقت ليس بالقليل ، من آلام المعدة • أوهام ؟ نعم• حتى السخرية به أيضا ، علاوة على كل شيء •

ولم يستطع جفناه المغمضتان أن يحتجزا الدموع التىفاضت بهما • وعض على شفتيه ، حتى يحول دون انبعاث شـــهقاته أيضا • وأخرج منديله من جيبه •

لم يكن ليظن أن وجهه قد غطاه الدخان من رحلته الطويلة، وعندما رأى المنديل أحنقته وغاظته وصمات دموعه السوداء • ورأى فى هذه الوصمات صورة حياته كلها•وأخذ المنديل بين أسنانه ، كما لو كان ليمزقه •

وتوقف القطار أخيرا فى محطة كاستلمارى ادرياتيكو •
وفى مقابل العشرين دقيقة الاخيرة من السفر ، كان يتعين

على القطار أن ينتظر أكثر من خمس ساعات فى هذه المحطة ٠ ذلك هو المصير الذى يلقى المسافرين فى هــذا القطار الليلى الآتى من روما فى اتجاه أنكونا وفوجيا ٠

وقد كان فى المحطة ، لحسن الحظ ، قهوة مفتوحة طول الليل ، كبيرة ، حسنة الضوء ، والمفارش على موائدها ٠ وكان بالوسع ، بفضل هذا الضوء وهذه الحركة ، أن يحتمــل المرء بطالة الانتظار الطويل وكآبته٠ولكن وجوه المسافرين المتورمة الشاحبة المغبرة المجهودة يرتسم عليها ضجر كــدر ، وضيق كاتم للنفس ، وغثيان رهيب عن الحياة التى تتكشف للجميع، بعيدة عن المحبات المألوفة وعن العادات الرتيبة ، خاوية، بلهاء، سفيهة وحزينة ٠

ولعلهم كثيرون أولئك الذين أحسوا بقلوبهم تنطبق عنــد صفير القطار النائح الذاهب فى الليل يتبع طريقه ٠ يمسى الواحد منهم مهموما يفكر فى أن المتاعب الانسانية لا راحة منها قط ، حتى فى الليل ، اذ هى تظهر لنا ، فى الليــل خاصة ، لا جدوى فيها ، مجردة من أوهام الضوء ، وبسبب هذا الحرج القلق الحصرى الذى لا قرار فيه ، والذى يقبض عـلى نفوس المسافرين فيدعها معلقة متأرجحة ، يخالون أنفسهم ضائعين، وحدهم على الارض ؛ وعسى الواحد منهم يفكر فى أن الحماقة وحدها هى التى تشعل النار فى قلوب تلك الآلات السوداء التى تذهب فى الليل ، تحت النجوم ، تجرى فى الســهول المعتمة ، وتقرقع بجلبتها على الجســور ، وتنفذ فى الانفاق الطويلة ، وتقذف بشكاتها بين الحين والحين ، يائسة من أنها تجر بالليل جنون الناس على طول السكك الحديدية المخطوطة لكى تطلق السبيل أمام هذياناته الوحشية التى لا ينال منهــا الكلال ٠

وشرب سيلفستيرو نولى قدحا من اللبن، على جرعات صغيرة، ونهض لكى يخرج من المحطة ، من باب القهوة الآخر ، فى نهاية

القاعة • كان بوده أن يذهب الى البلاج ينشق نسيم الليل على البحر ، بعد أن يعبر الشارع الكبير العريض فى وسط البلدة النائمة •

ولكنه اذ كان يمر أمام مائدة من الموائد ، شـــعر بنداء من سيدة ترتدى الحداد ، ضئيلة القد ، ناحلة رقيقة ، شـاحبة ومتهضمة ، تخفى وجهها تحت قناع كثيف •

ـ برفسور نولى •••

فتوقف مندهشا متحيرا •

ـ مدام ••• أوه • أنت ؟ مدام نينا ؟ كيف حدث هذا ؟

كانت زوجة أحد زملائه ، البرسفور رونشى ، وقد عرفه منذ سنوات ، فى أتيرا ، فى مدرسة الصناعات • نعم •• مات ـ انه يعرف ـ منذ بضع شهور ، فى الانســيانو ، وقد كان ما زال شابا • كان قد قرأ النعى فى دهش مؤلم • رونشى ، المسكين ، ما كاد يصل الى المدارس الثانوية ، بعد كل هــذه المسابقات السيئة الحظ ، حتى مات فجأة من هبوط فى القلب ، من فرط حبه ـ كما يقولون ـ لهذه الزوجة الدقيقة الضئيلة التى كان يجرها خلفه أينما ذهب ، كذب ضخم عنيف وعنيد

وقصت عليه الارملة ، وهى ترفع الى فمها منديلها الاسود الحواشى ، وتنظر اليه بعينيها الرائعتى الجمال ، الغائرتين فى محجريهــا الشاحبين المتورمين ، كل آلام مأساتهــا الأخيرة القاسية ، وهى تهز رأسها هزات خفيفة •

ورأى نولى دمعتين كبيرتين تنحدران من عينيها الجميلتين السوداوين ، فدعاها للنهوض والخروج من القهوة معه ، حتى يتاح لهما قدر أكبر من حرية الكلام ، على طول الشارع المهجور ، حتى البحر •

كان جسمها الشقى الصغير يرتجف كله ، وكان يبدو أنها

تسير فى وثبات صغيرة من الانفعال ، وهى تهز كتفيهـــا ، وذراعيها ، ويديها الجافتين الطويلتين طولا مفرطا • وأخذت تتكلم بلهجة محمومة ، وكان صـــدغاها ووجنتاها تشتعلان أحيانا • وكانت تتمتم أحيانا ، وتردد الحروف فى بداية بعض الكلمات ، ويبدو أنها تزفر من الغيظ والثورة • وتمر بمنديلها دون توقف على طرف أنفها وعلى شفتها العليا التى كانت تتفصد عليها قطرات العرق بشكل غريب ، فى تعجلها الكلام • وكان صوتها يختنق أحيانا ويغص بجريان ريقها •

ـ آه • نولى • ألا ترى • هنا • يا عزيزى نولى ، تركنى هنا • وحدى مع ثلاثة أطفال • فى بلد لا أعرف فيه أحـدا على الاطلاق حيث لم أصل الا من شهرين تقريبا •• وحدى ، وحدى تماما • آه •• كم كان رجلا رهيبا غريبا ، يا نولى • دمر نفسه ، ودمرنى أيضا ، صحتى ، حياتى •• كل شىء •• لقد مات وتركنى وأولاده للبؤس والشقاء •

وهزتها رجفة طويلة انتهت بصوت يوشك أن يكون صهلة • واستأنفت حديثها :

ـ لقد نزعنى عن بلدى ، حيث لم يعد لى أحـد الآن ، الا أخت ، متزوجة •• ماذا عسى أن أفعل هناك ؟ لن أقبل أبدا أن أبدو ، بكل مظاهر بؤسى أمام كل أولئـــك الذين كانوا يحسدوننى يوما •• ولكن هنا •• وحدى مع ثلاثة أطفـــال صغار ، لا يعرفنى أحد • ماذا أفعل هنا ؟ اننى بائســـة •• وأحس نفسى ضائعة • ذهبت الى روما أطلب المعاش • ليس لى الحق فى شىء • ليس له الا احدى عشرة سنة فى التدريس ، أحـد عشر مرتبـا شهريا ، بضع آلاف من الليرات • ولم يدفعوها لى بعد • وقد صرخت فى الوزارة حتى ظنونى مجنونة •• وقالوا لى يا سيدتى العزيزة •• خذى دوشا باردا ، دوشا باردا • أى نعم ولعلنى أصبحت مجنونة فعلا • عندى هنا • هنا دائما • ألم • ألم كالنهش ، كالشد ، هنا ، خلف العنق ،

نولى • أنا كالمسعورة • نعم • نعم • بقيت مسعورة من الحزن كأننى محروقة من الداخل • وعندى نار ، نار فى الجسم • آه • كم أنت هادىء ، ويدك باردة ، أنت يا نولى، هادىء ويدك باردة • أنت

وهى اذ تتكلم ، فى وسط الشارع الرطب المهجور ، تحت المصابيح الكهربية الواهنة المتباعدة التى لا تكاد تشيع فى الليل ضوءا خافتا لا شغوف فيه ، تتعلق بذراعه ، وتسند الى صدره رأسها الملفوفة بغطائها الاسود ، تتحسس صدره برأسها كما لو كانت تريد لتدفنها فيه ، وتنفجر بدموع وشهقات لا كبح لها •

وتراجع نولى ، بحركة غريزية ، كأنما ليبعدها عنه ، وقد ذهل ، وبهت ، واهتزت نفسه هزا عنيفا • وأدرك أن هذه المرأة البائسة ، فى غمار اليأس الذى ينتابها ، قد تعلقت فى جنون بأول رجل قابلته من معارفها •

ـ تشجعى ، تشجعى يا سيدتى •• يدى باردة • هادىء • أى نعم • هادىء • ان عندى امرأتى يا سيدتى العزيزة ، أنا ••

ـ آه •

وهى تبتعد على الفور •

ـ امرأة ، أنت متزوج ؟

ـ نعم ، منذ أربع سنوات يا سيدتى ، وعندى ولد أيضا •

ـ هنا ؟

ـ هنا •• قريبا جدا •• فى مدينة سانت أنجلو •

ـ فتركت الارملة الصغيرة ذراعه

ـ لكن ألست من بيمونت ، أنت ؟

ـ نعم ، من تورين بالضبط •

- وزوجتك ؟

- آه . لا . زوجتى من البلد

وتوقف الاثنان تحت مصباح من مصابيح الشارع . نظرا أحدهما الآخر ، وفهما أحدهما الآخر

كانت ، هى من الطرف الاقصى من ايطاليا ، من بانيارا كالابرا .

رأيا أحدهما الآخر ، في الليل ، ضائعين فى هذا الشارع الطويل الواسع المهجور الكئيب الذى يفضى الى البحر ، بين الفيللات والبيوت الصغيرة النائمة في هذه البلدة التى شد ما هى بعيدة من محباتهما الاولى الحقة ، ولكن شد ما هى قريبة من الاماكن التى ثبت بها القدر القاسى قربهما . وأحسا بازاء أحدهما الآخر شفقة عميقة ، رحمة بدلا من أن توحد بينهما أغرتهما ، بمرارة ، بأن يبقيا أحدهما بعيدا عن الآخر، كل منهما محبوس مغلق عليه فى شقائه الخاص الذى لا عزاء له .

وذهبا ، فى صمت ، حتى البلاج الرملى ، واقتربا من البحر . كان الليل هادئا كل الهدوء ، وطراوة النسيم البحرى لذيذة .

ولم يكونا يريان البحر اللامتناهى ، ولكنهما كانا يحسانه، حيا ، نابضا فى الهوة السوداء ، غير متناه ، وهادئا فى الليل . ولكنهما كانا يريان ، فى نهاية ، بين غيامات الضباب الرانية على الافق ، شكلا له لون الدم الكدر ، يرتعش على المياه . لعله الهلال الذى يغيب ، يغلفه الضباب .

وكانت الامواج تستطيل ، وتتمدد على الشاطىء ، دون زبد ، كألسنة طويلة صامتة ، تترك على الرمال الصقيلة

اللامعة المشبعة بالماء بضعة أصداف هنا وهناك تنغـــرز فى الرمل اذ تنحسر الامواج ٠

وكان كل هذا الصمت الذى يفتنهما فى السماء ، يعبـره ومض النجوم التى لا عداد لها ، تبدو حية كما لو كانت تريد أن تتحدث الى الارض فى السر الليلى العميق ٠

وأخذا يسيران طويلا ، صامتين ، على الرمال الرطبة التى تنزل تحت أقدامهما ، لا يتركان آثارهما الا لحظـــة تختفى بعدها الآثار ، فما يكاد ينطبع الاثر حتى يضيع ٠ ولم يكونا يسمعان الا حفيف ثيابهما ٠

واجتذبهما قارب يضرب الى البياض ، فى العتمة ،مقلوبعلى الرمل ٠ فجلسا اليه ، هى الى جانب منـــه وهو الى الجانب الآخر ، وبقيا هناك طويلا ، صامتين ، معلقى البصر بالأمواج التى تصل هادئة شفافة تتسع على الرمل الارمد الطرى ٠ ثم رفعت المرأة عينيها الجميلتين الواسعتين السوداوين نحـــو السماء ، وكشفت ، تحت ضوء النجوم ، شحوب جبهتهـــا المعذبة ، وعنقها الذى يخنقه القلق والمعاناة ٠

ــ نولى ٠ ألا تغنى هذه الايام ؟

ــ أنا ٠ أغنى ؟

ــ نعم ، ألا تذكر الوقت الذى كنت تغنى فيه ، فى الليالى التى يروق فيها الجو ويحلو الليل ٠ ألا تذكر ٠ فى ماتيرا ؟ كنت تغنى ، وما زلت أسمع صدى صوتك الخافت المنغوم ، كنت تغنى نصف هامس ، بعذوبة ٠٠ بحلاوة عاطفية ، ألا تذكر ذلك ؟

وشعر ، عند ابتعاث هذه الذكرى غير المنتظرة ، بيقظة فى كيانه كله ، ومرت به رجفة حنان لا يوصف

أجل ٠ أجل ٠ كان هذا صحيحا ٠ كان يغني في تلك الايام

هناك ، في ماتيرا ، في تلك الايام كانت أغاني صباه العذبة العاطفية ما تزال في روحه ، وفي الامسيات الرائقة ، وهو يتمشى مع بعض الاصدقاء ، تحت السماء والنجـــوم ، كانت تنبثق هذه الاغنيات على شفتيه .

كان حقا اذن ، انه قد أخذها معه ، أخذ الحياة معه ، بعيدا عن بيت أبويه في تورين . كانت معه تلك الحياة هنـــاك ، في ماتيرا ، طالما كان يغني عندئذ . بجانب هذه الصـــديقة الضئيلة الجسم البائسة ، التي عساه غازلها قليـــلا .. في تلك الايام البعيدة ، من تعاطف بينهما بلا شك ، دون غدر ودون خيانة . لانه كان بحاجة لأن يشعر الى جانبه بحرارة محبة صغيرة ، بحنان حلو من صديقه ..

- أتذكر يا نولي ؟

وتمتم ، وعيناه مثبتتان بفراغ الليل :

- نعم . نعم يا سيدتي . أذكر الآن ..

- أنت تبكي ؟

- أنني أذكر ..

وصمتا من جديد . ونظرا ، كليهما ، الى الليل ، وأخـــذا يحسان الآن أن شقاءها يوشك أن يختفي . فليس هـــــذا الشقاء لهما وحدهما ، بل للعالم كله ، لكل الكائنـات وكل الاشياء ، لهذا البحر المظلم الذي لا راحة له ، لهذه النجـــوم الوامضة في السماء ، لكل الحياة التي لا يمكن أن نعرف فيها لماذا يولد المرء ، ولماذا يحب ، ولماذا يموت .

وكانت المتعة الهادئة البليلة ، تخترقها كل هـــذه النجوم ، على البحر ، تغلف ألمهما الذي يتشتت وينتشر في الليـــــل ، يتذبذب وينبض مع هذه النجوم ، ويهبط في ضربات بطيئة خفيفة رتيبة مع الامواج ، على الشاطيء الصـــامت . وكانت

النجوم ، هى أيضا ، ترمي بومضها فى هوى الفراغ ، تتساءل لماذا ، والبحر يتساءل بأمواجه المكدودة ، وحتى الاصداف الصغيرة المهجورة هنا وهناك على الرمال تتساءل بنفس السؤال .

ولكن العتمة أخذت تتبدد شيئا فشيئا ، وأخذ شحوب الفجر الاول يتبدى على صفحة البحر . وعندئذ أخذ كل ما هو مشتت ، خفى ، بل مبطن ، من ألم هذين الكائنين المسندين الى جدران القارب المقلوب على الرمل ، ينكمش ويتحدد ، بصلابة عارية جافة ، كملامح وجهيهما فى نور الفجر المهتز الحزين .

وأحس نولى بالبؤس يأخذه من جديد ، بؤس بيته القريب الذى سرعان ما يصل اليه الآن ، ورأى بيته ، كما لو كان قد وصل هناك ، بكل ألوانه ، وخصائصه ، وامرأته وولده بداخله ، يختفيان بوصوله . وهى أيضا . الارملة ، لم تعد ترى مصيرها بكل ذلك السواد ، وكل ذلك اليأس ، كان لديها بضعة آلاف من الليرات ، أى أن حياتها مكفولة شيئاً من الوقت . وستجد الوسيلة لتنظيم مستقبلها ومستقبل أولادها الثلاثة . فسوت شعرها بيديها على جبهتها ، وقالت مبتسمة:

- من يعرف كيف أبدو يا صديقي العزيز ، أليس كذلك ؟
وأخذا يسيران عائدين نحو المحطة .

وبقيت ذكرى هذه الليلة فى أعمق ركن من روحيهما ، ومن يدرى ؟ لعلها تظهر من جديد ، أحيانا ، فى ذكرياتهما البعيدة ، كنافورة من الشعر الخفى والمرارة الخفية ، ومع ذلك البحر الهادىء المظلم ، وكل تلك النجوم الومضة .

« جنون القمـــر »

لويجي بيراندللو

كان باتا جالسا ، مقعيا منكمشا على بعضه البعض، على حزمة من التبن ، في وسط الجرن

وكانت سيدورا زوجته ، تستدير لتنظر الى زوجهاالساهم الشارد الذهن ، من حين لآخر ، وهي على عتبة البيت ، حيث كانت تقف مسندة رأسها الى اطار الباب ، عيناها نصـف مغمضتين • ثم مدت بصرها وقد أرهقتها الحرارة ، الى أبعد حتى الخط الازرق الذى يبدو من البحر البعيد ، كما لوكانت تنتظر أن يهب منه نسيم خفيف ، مع غروب الشـمس ، فيصل اليها عبر الاراضي المعراة الجـافة المشـعشعة من أثر الدريس المحروق •

وكانت الحرارة من شدة الوطء بحيث كان الهواء يبـدو مشبعا بريح موقدة مشتعلة ، فوق التبن الذى يتناثر في الجرن ، بعد دريس القمح •

وكان باتا قد استل عودا من القش ، من الحزمة التي كان يجلس عليها ، وأخذ يحاول أن يضرب به حذاءه الغليـظ ، بيديه الخشنتين القشفتين ، لكن محاولته ضاعت عبثا ، فما كاد يحرك عود القش حتى انثنى ، وظل باتا عابسا مهمـوما يستغرقه التحديق الى الارض •

وكانت هذه الحركة التي لا طائل وراءها ، ما يفتأ زوجهـا يكررها بعناد ، في الفضاء المعتم الجامد بلا حراك ، تثير عند سيدورا غضبا مكتوما متفززا لا يطاق • بل كانت كل حركة في الواقع ، يأتيها هذا الرجل ، بل مجرد مرآة يثير عنـدها هذا الانفعال الذى لا تكاد تقمعه في كل مرة الا بعناء ومشقة

لم تكد عشرون يوما تنقضي بعد على زواجها ، وها هي ذى

سيدورا تحس بنفسها مقضيا عليها ، هالكة ، وكانت تحس في داخلها ، ومن حولها ، بخواء غريب فادح الثقل ، وقاس . ولم يكن يبدو لها ، حقا، أنها قد اقتيدت الى هنا منذ هذه الايام القلائل فقط ، الى هذه المزرعة القديمة المنعزلة ، والى هذا البيت لذى هو اصطبل فى نفس الوقت ، وسط هـــذه الصحراء من دريس القمح ، دون شجرة تحيطها ، دون خيط واحد من الظل .

هنا ، منذ عشرين يوما لما تكد تنقضى، تكاتم دموعها وغيظها بالكاد ، أسلمت جسمها لهذا الرجل الصموت الذى يكبرها بنحو عشرين سنة ، وهو الآن تثقله ، فيما يبـدو ، كآبة أقدح يأسا من كآبتها .

وتذكرت ما قالته نساء الجيرة لامها ، عندما أنبأتهم بخطوبته

ــ باتا . يوه يا ختى ، دانى ما كنتش أديه واحدة من بناتى أبدا ، لما يسوى الهوايل

وظنت أمها أنهن يقلن ذلك من الحسد ، فقد كان باتا رضى الحال . وبقدر ما عزفت النسوة عن مشاركتها رضاها بالحظ الطيب الذى وقع من نصيب بنتها ، واتخذن مظهرا محزونا مكروبا ، بقدر ما عاندت وصممت أن تعطيه بنتها . لا ، لم ينل أحد باتا بسوء، فى الحقيقة ، ولكن أحدا لم يذكره بالخير أيضا . فلم يكن أحد يعرف كيف يعيش ، معتكفـــا منقطعا فى ركن بعيد من الارض ، وقد كان وحيـدا دائما ، كما لو كان حيوانا ، برفقة بهائمـــه ، بغلين ، وحمـارتين ، وكلب للحراسة . وقد كان بالتأكيد يبدو بمظهر غريب حيـوانى مستوحش ، ويسلك أحيانا سلوك المجانين

لا شك أن هناك سببا آخر ، أخطـر وزنا ، دعا الأم لان تصمم على أن تعطيها لهـذا الرجل . وتذكرت سيدارو هـذا السبب الآخر الذى كان يبدو لها الآن بعيدا جدا ، كما لو كان يرجع الى حياة أخرى ، لكنه سبب واضح دقيق . رأت

شفتين نديتين ، رقيقتين وقانيتين ، كورقتي قرنفلة ، تتفتحان عن ابتسامة تثيرها،وترجفها ، وتجعل دمها يغلي في‌شرايينها. شفتا سارو ابن خالها ، ذلك الذي لم يقو ، بالرغم من حبه لها ، أن يصلح من شأنه وأن يتخلص من رفقة أصحاب‌السوء، حتى يحرم أمها من كل تعلة لرفض زواجها به .

آه ، مؤكد أن سارو كان ليغدو زوجا غير طيب بالمـرة ، ولكن الآن ، ماذا نالت من زوجها هذا ؟ ألم تكن الاحزان التي كان الآخر ، دون شك ، لينكبها بها ، خيرا من هذا القلق الخانق ، والغيظ ، والخوف الذي يثيره هـــذا الزوج في نفسها ؟

ثم استقام باتا أخيرا ، وما كاد ينهض حتى أصابه دوار ، فدار حول نفسه نصف دورة ، وانطوت ساقاه تحته كما لو كانتا مقيدتين مغلولتين ، وما بلغ‌التحامل على نفسه الا بمشقة وذراعاه تضربان الهواء ، وانطلق من حلقـــه خوار غاضب مستثار .

فجرت سيدورا وقد استبد بها الهلع ، لكنه اوقفها بحركة من ذراعه ، وغزا فمه سيل لا يغيض من اللعـاب حال دونه والكلام . فطردها عنه من جديد ، وهو يعوى بها ، الى داخل البيت ، وهو ينافح الفواق الذي يهزه ، وفي حلقـة غرغرة مخيفة . وكان وجهه شاحبا ، مكروبا ، بلون التراب ، وعيناه رهيبتان ، منذرتان ، محجوبتان ، يستبين فيهما ، من وراء الجنون ، خوف يكاد يكون صبيانيا ، خوف ما زال واعيـا مدركا ، ولا نهائيـا . واستمر يشير بيديه ، لكي تنتظر ، لكي لا تخاف ، ولكي تظل بعيدة عنه . وصرخ في النهاية ، وبصوت ليس من صوته :

ــ جوه . احبسي نفسك جوه . كويس . ما تطربيش . لما أخبط وأرجع . وأهز الباب وأخرمشن فيـــه ، وأزعج . ما تطربيش . ما تفتحينش . أبدا . ياللا . روحي .

فهتفت سدارو مذعورة :

ـ ياه •• مالك ؟ ايه اللى بيك ؟

فأطلق باتا من جديد صرخة مكتومة مصمتة ، وارتجف جسمه في تشنج عصبي ، حتى بدت أطرافه كأنها قد تضاعفت أضعافاً ، ثم أشار الى السماء ، وهو يهز ذراعيه ، وجأر :

ـ الجمر ••

واستدارت سيدارو تجرى الى البيت ، ورأت فى ذعرها ، البدر المكتمل ، مشتعلا ، يضرب الى لون بنفسجي ، ضخما هائلا ، لم يكد يبزغ من قمم جبال لأكروكا المغبرة الضاربة الى السواد •

وأوصدت على نفسها الباب من الداخل ، وضمت ذراعيها الى جسمها كما لو كانت تخشى أن تنتزعهما منها تلك الرعشة التى تهزها ، لا تغلب ، وتضطرد قوتها • وهى تصرخ أيضا ، وقد أفقدها الخوف صوابها • وسرعان ما سمعت خوار زوجها وزئيره الطويل الوحشى ، وقد تقبض جسمه ، بالخارج أمام الباب ، فريسة للمرض الرهيب الذى يأتيه من القمر • وكان يخبط الباب برأسه ، وقدميه ، وركبتيه ، ويديه ، ويخدش فيها خدوشا خشنة عميقة ، كما لو كانت أظافره قد استحالت الى مخالب ، وهو ينفخ ويزفر وقد أثاره، وأضناه تعب غاضب محنق حيوانى ، كما لو كان يريد أن ينتزع الباب ، أن يحطمه • وأخذ ينبح الآن ، كما لو كان هناك كلب فى جلده ، ويخدش الباب من جديد ، يميل لعابه ، ويهدر ، ويدق الباب برأسه ، وركبتيه •

فصرخت ، وهى عارفة أن أحدا لن يسمعها فى هذا الخلاء :

ـ الحجونى •• الحجونى ••

وهى تسند الباب بذراعيها ، خشية أن يتفتح ، بالرغم من

المتاريس المتعددة ، تحت ضغط العنف المتكرر الوحشي المتوقد في هذه الثورة العمياء الهادرة ٠

آه ٠ لو كان بوسعها أن تقتله ٠ واستدارت وقد جن جنونها وهي تتمنى تقريبا لو أنها وجدت سلاحا في الغرفة ٠ ولكنها رأت القمر من جديد ، من خلال قضبان النافذة ، على الجدار الامامي ، وقد صفا الآن وترقرق ، وأخذ يعلو في السماء ، يسبح في ضوئه الناعم ٠ وأطلقت ، عند هذا المشهد ، كما لو كان مرض القمر قد مسها بعدواه فجأة ، صرخة مروعة ، وسقطت على ظهرها ، دون ادراك

وعندما ثابت الى وعيها ، مشلولة الحس ، لم تفهم أولا ، لم كانت متمددة على الارض بهذا الشكل ٠ ثم أعادتها المتاريس المسندة بالباب الى الحقيقة ، وذعرت ، فورا ، من الصمت الذي كان يسود الآن في الخارج ٠ ونهضت مترنحة ، واقتربت من الباب ، وأصاخت السمع ٠

لا شيء ٠٠ لا شيء أبدا ٠

وظلت طويلا تصيخ السمع ، يرهقها ويبهظها الآن هذا الصمت الغريب الشامل ، صمت الكون بأسره ٠ وخيل لها في الاخر أنها سمعت ، على مقربة منها جدا ، صوت تنهدة ، تنهدة كبيرة ، كما لو كانت نفثة صادرة عن قلق ميت

فجرت على الفور الى الصندوق تحت السرير ، وجذبته نحوها ، وفتحته ، وأخرجت منه ملحفتها ، واستدارت ناحية الباب ، ومدت سمعها من جديد طويلا ، ثم رفعت المتاريس واحدا بعد واحد ، بصمت ، وأزاحت المزلاج الداخلي ، وواربت ضلفة من الباب بالكاد ، وأخذت ترصد الخارج ، من الخرق الضيق الموارب ٠

كان باتا هناك أمامها ، راقدا كحيوان ميت ، منبطحا على

بطنه ، فى وسط لعابه ، وقد اسود وجهه وتورم ، وذراعاه مفتوحتان ، وكان كلبه بجانبه يحرسه ، تحت القمر •

وخرجت سيدورا ، وهى تحبس أنفاسها ، وأغلقت الباب بحرص تام ، وأشارت الى الكلب باشارة عنيفة ألا يتحرك ، وأخذت ملحفتها تحت ذراعها ، ومشت ، فى حيطة ، بخطوات مسترقة ، وهربت فى الخلاء ، متجهة الى القرية ، فى الليل الذى ما زال فى عنفوانه ، وقد غمره ضوء القمر •

فوصلت الى بلدها ، عند أمها ، قبيل الفجر • وكانت أمها قد نهضت منذ قليل • وكان الكوخ المظلم ، كالجب ، فى آخر زقاق ضيق ، لا يكاد يستنير بمصباح زيتى صغير • واندفعت الى داخل البيت ، فبدا أنها تشغل المكان كله ، مضطربة ، منقطعة النفس •

فأطلقت الام صرخاتها ، اذ رأت بنتها فى تلك الساعة ، وفى تلك الحال ، وجرت نسوة الجيران جميعا اليهما ، والمصابيح الزيتية فى أيديهن •

وانخرطت سيدارو فى البكاء بدموع حارة ، وهى تنزع شعرها ، وتبكى ، وتتظاهر بأنها عاجزة عن الكلام ، حتى تتيح لامها ، وللجيران ، أن يفهمن وأن يحكمن على مدى البلوى التى نزلت بها ، والذعر الذى نال منها •

— أتجنن م الجمر ! اتجنن م الجمر !

وغزا قلوب النسوة جميعا ذعر خرافى من هذا المرض الغريب الغامض ، عندما حكت سيدورا حكايتها • اه • غلبانة ألم يقلن ، هن ، لامها ، ان هذا الرجل لم يكن طبيعيا ، وأنه لا بد يخفى سوءة لا يمكن الاقرار بها ، حتى أنهن لم يكن ليعطينه بنت واحدة منهن ، كان ينبح؟ كان يعوى ، كالذئاب؟ ويخدش الباب بأظافره ؟ يا يسوع ! يا حفيظ !

وكيف لم تمت البنت من هذه الحكاية ؟ غلبانة !

وجلست الام ، منهارة على كرسي ، هالكة ، تتدلى ذراعاها إلى جانبيها ، رأسها محنية ، وهي تئن ، وتقول في ركنها :

ـ آه ، بنتي . آه . بنتي . آه ، بنتي ياغلبانه . راحت البنت .. راحت .

وعند مغرب الشمس ، ظهر باتا على الطريق ، يجر خلفه بغليه المطهمين . كان منتفخ الوجه ، مصفرا ، خائرا ، مكروبا ومهدود الحيل .

وعندما سمعت النسوة دق حوافر البغال على حصى الطريق التي كانت تشعلها شمس أغسطس كالفرن ، فيغشى البصر ، بسبب بهرة الطباشير ، انسحبن جميعا ، يكاتمن صرخاتهن وحركاتهن من الذعر ، ويحملن كراسيهن ، الى داخل الاكواخ ، في عجلة ، وأخرجن رؤوسهن من الابواب يرصدن ما يحدث ، ويتبادلن الاشارات بالعيون ، فيما بينهن .

وخرجت أم سيدورا على العتبة ، متكبرة ، ترتعش من الثورة وأخذت تصيح :

ـ ابعد من هنا ، ابعد ياكافر . وعندك جلب تيجي لحديت عندي ؟ ياللا امش انجر .. إنجر من جدامي . ودمرت بنتي . ضيعت بنتي . امش من جدامي .

واستمرت تلجب وتصخب فترة من الزمن ، على هذا المنوال ، بينما كانت سيدورا قد انسحبت الى ركن في الداخل ، تبكي وتتوسل الى أمها أن تدافع عنها ، وألا تدعه يتقدم .

وأصغى باتا ، محني الرأس ، لتهديدها ، ووعيدها وشتائمها . فقد كان يستحقها ، كان مخطئا ، لانه أخفى مرضه . أخفاه لان امرأة ما لم تكن لترضى به لو أقر به . وكان من الحق أن يحتمل الآن عواقب خطئه .

كان مغمض العينين ، وقد هبط رأسه على صدره فى ألم ، دون أن يخطو خطوة واحدة • وعندئذ أقفلت حماته الباب فى وجهه ، وأوصدته بالضبة والمفتاح • وبقى باتا لحظة ، محنى الرأس ، أمام الباب المغلق ، ثم استدار ، ورأى على عتبات الاكواخ الاخرى النسوة الكثيرات ، يترصدنه بعيون مليئة بالكرب والذعر • وهذه العيون رأت الدموع على وجه الرجل اليائس ، وعندئذ انقلب الذعر الى رحمة •

فأتت له احداهن ، أكثرهن شجاعة ، بكرسى ، وخرجت الباقيات ، مثنى وثلاث ، وأحطن به وشكرهن باتا ، باشارات خرساء من الرأس ؛ أخذ يحكى لهن ببطء بالغ ، حكاية بلواه • كانت أمه ، فى صغرها ، قد ذهبت به لغيطان القمح ، ونامت فى الجرن وتركته ، وهو طفل ما يزال ، معرضا لضوء القمر طول الليل ، وهو الطفل البرىء البائس ، بطنه مكشوفة للهواء ، بينما راحت عيناه تهيمان هنا وهناك ، وراح يلعب بالقمر الحلو ، وهو يهز ساقيه الصغيرتين وذراعيه الصغيرتين • فسحره القمر • ولم يظهر هذا « السحر » مع ذلك طوال سنين عديدة ، ولم ينكشف الا منذ قليل من الزمن • والمرض ينتابه عند اكتمال البدر ، مرة واحدة كل شهر • لكن المرض لا يصيب أحدا غيره ، ويكفى أن يحتاط منه الآخرون ، وفى وسعهم أن يحتاطوا منه أحسن الحيطة ، اذ لا يأتيه هذا الا فى مواعيد ثابتة ، وهو يحس نذر المرض ، ويتوقع مجيئه ، فى كل مرة ، ولا يستغرق ذلك الا ليلة واحدة ثم ينتهى الامر • وقد أمل أن تكون امرأته أشجع جنانا ، وما دامت ليست كذلك ففى الامكان ترتيب الامور ، بحيث تعود الى بلدها ، عند أمها ، فى كل مرة يكتمل فيها البدر ، أو تأتى أمها اليها فى المزرعة ، لترافقها تلك الليلة •

— ايه ؟ أمى ؟

ووثبت سيدؤر عندئذ ، متقـدة الغضب ، شرسة ، وهى تفتح البـاب على مصراعيه ، وقـد كانت تسترق السمـع من ورائه .

ـ أنت إطبرت . أمى كمان ، عاوزة تجتلها من الطربة ؟

وخرجت الام تزيح بنتها بكوعها ، وتأمرها بأن تخرس ، وأن تكن فى البيت . وإقتربت من جماعـة النسـوة ، وقد أصبحن جميعا رحيمات خيرات وأخذت تتكلم معهن ، ثم مع باتا ، وحديها .

وكانت سيدورا ، من عتبة الباب ، تتبع حركات أمهـا وزوجها حانقة وجلة مغيظة ، وخيل لها أن زوجها يعد أمها ، بحرارة بوعود تلقتها هذه بترحيب واضح ، فصرخت :

ـ لا يهمك منه . سيبك منه . انتوا عما تتفجوا بناتكم ؟ مافيش فايدة . مافيش فايدة . ط مبدانى اللى لازم أرضى ، آنى لوحدى .

فأشارت لها نسوة الجيران بالحاح ، أن تصمت ، وأن تنتظر احدى ... رهينة ، ثمشكر الجيران ، وذهب يجر خلفه البغلة نهاية الحديث . وسلم باتا فى النهاية على حماته ، وترك عندها احدى بغليه رهينة ، ثم شكر الجيران وذهب يجر خلفه البغلة الاخرى من خطامها

وقالت الأم على الفور ، بصوت خفيض ، وهى تعود لبيتها:

ـ اخرسى انت يابت ياهبلة . لما ييجى البتر ، فى تمامه حابجى أجيلك ، مع سارو ...

ـ مع سارو ؟ هو اللى جال ؟

ـ آنى اللى جلت له . اخرسى انت . مع سارو ...

وخفضت عينيها لتخفى ابتسامتها ، وتظاهرت بانها تمسح

فمهـا الادرد بطرف المنـديل الذى تلف به رأسهـا ، وتعقده تحت ذقنها ، وقالت :

ـ وهو احنا لينا راجل غيره فى العيلة ؟ هو اللى يحامى لنا ويراعينا اسكتى انت •

فعادت سيدور من الفجر ، فى الغد ، على البغلة الاخرى التى تركها زوجها •

ولم تعد تفكر فى غير ذلك طوال التسعة والعشرين يوما الباقية على اكتمال البدر الجديد • وأخذت ترقب قمر أغسطس يتناقص شيئا فشيئا ويتأخر مشرقه أكثر فأكثر ، وكم كانت تود لو عجل بهذه الخطوات الآملة ، ثم لم تعد تراه بالمرة بضع ليال • ثم رأته أخيرا ، الهلال الجديد ، رقيقا فى سماء الاصيل ، ثم أخذ يتزايد شيئا فشيئا من جديد •

وكان باتا يقول لهـا ، بحزن ، اذ يراها مثبتة العينين دوما بالقمر :

ـ ما تخافيش ، لسه بدرى • لسه بدرى • العيا مايجيش الا لما تروح الجيران دول بتوعه ••

وأحست سيدورا برعشة عند سماعها هـذه الـكلمات ، مصحوبة بابتسامة غامضة ، فنظرت اليه مفزعة •

وأخيرا جاءت الليلة المشتهاه المخوفة فى وقت معا • ووصلت الأم ، على حصان ، مع ابن أخيها ساروا ، قبل بزوغ القمر بساعتين •

وكان باتا يجلس كالمرة السابقة تماما ، مقعيا منكمشا على بعضه البعض ، فى الجرن ، ولم يرفع رأسه لتحيتهـا ، حتى ولا ... سيدورا ، وقد كانت ترتعش أوصالها جميعا ، فقد

أشارت الى ابن خالها ، وأمها ، ألا يوجها له كلمة واحدة ، وسبقتهما الى داخل البيت • وذهبت الام تبحث فورا وتنقب في غرفة معتمة مجاورة للغرفة الكبيرة ، وهي تستخدم اصطبلا أيضا ، حيث تراكمت الادوات القديمة : الفؤوس والمناجل ، والمجارف ، والاجربة والشوالات •

وقالت سارو : انت راجل •

وقالت لبنتها : وانت أديكي عارفه هو بيعمل ايه • لكن أنا عجزت خلاص ، ويخاف من خيالى • أنا جاعدة هنا فى الركن لوحدى ، مش حنطج بكلمة • حجفل على نفسى ، وهو يعمل زى الديابة برا بخطره •

وخرجوا ثلاثتهم ، وظلوا يثرثروا فترة طويلة أمام البيت • وكانت العتمة تهبط على الريف ، فتتقد نظرات سيدورا ، وتهتاج • أما سارو ، فعلى العكس ، وهو المرح المنطلق فى العادة ، المتوفر بالنشاط أخذ يحس شحوبا ، وهبوطا يتزايد شيئا فشيئا ، وتصلبت ابتسامته على شفتيه ، وجف ريقه وكان لا يكاد يستقر فى جلسته ، كما لو كان فى الحائط الذى يجلسون عليه أشواك تخزه ، ويبلع ريقه بمشقة • وكان يلقى بنظرة بين الحين والحين ، الى هذا الرجل هناك ، ينتظر هجوم الازمة ، بل كان يمد عنقه ليرى ما اذا كان البدر ، بوجهه المخيف ، لم يبزغ بعد ، من خلف جبال لاكروكا •

وقال للمرأة : لسه مافيش حاجة •

فأجابته سيدورا ، بحركة احتقار محتدمة ، واستمرت تهيجه بنظراتها وهى تضحك •

وأخذ سارو يشعر بالذعر ، وهو يستهول هاتين العينين اللتين كادتا تفيضان بالجسارة والفجور ، أكثر مما يستهول هذا الرجل المتكمش هناك للانتظار •

وكان هو أول من قفز كالجدى ، إلى البيت ، بمجرد أن أطلق باتا صرخته المنذرة ، وأشار بيديه للثلاثة الآخرين أن يحبسوا أنفسهم على الفور بالداخل . آه . شد ما تعجل سارو بوضع المتاريس خلف الباب ، بينما أخفت العجوز نفسها ، بحيرة وخزى ، فى الغرفة الجانبية الضيقة ، وأخذت سيدورا تردد ، محنقة ، مثبطة ، بلهجة ساخرة :

ـ ما على مهلك إمال . حاسب على نفسك .. ما فيش حاجة ما تيك حتشوف ...

لا شيء ؟ آه .. لا شيء . وقد وقف شعره على رأسه بمجرد أن خبط باتا على الباب ، وعند أولى صرخاته ، وعند أولى خبطاته بالقدمين على الباب ، أخذ سارو يرتعش كالورقة . وقد بلل جسمه بالعرق البارد ، وسرت فى ظهره رجفة لا تتوقف ، وانفتحت عيناه فى محجريهما . لاشيء ؟ يالله ... بالله العظيم . ولكن ماذا ؟ أهما مجنونتان هاتان المرأتان ؟ وبينما كان زوجها بالخارج، يخبط على الباب فى ضجة مروعة، أخذت سيدورا تضحك ، جالسة على السرير ، تهز ساقيها ، وتمد له ذراعيها ، وتناديه : سارو . سارو .

نعم ؟ ووثب سارو ، غاضبا ، وقد ثار ثائره ، الى الغرفة الجانبية الصغيرة ، وأمسك العجوز من ذراعها ، وجذبها الى الخارج ، ورماها على السرير بجانب بنتها ، وهو يصرخ :

ـ خدى ، خدى يا شيخة ، دى بنتك مخبولة .

وتراجع نحو الباب ، فرأى ، هو أيضا ، من بين قضبان النافذة العالية ، على الحائط الامامى ، البدر الذى كان يصيب الزوج بكل هذا الضر ، البدر الذى يبدو كما لو كان يضحك، سعيدا وبقحا ، من خيبة انتقام الزوجة .

أنطونيو بالديني :

ولد في روما سنة ١٨٨٩ • وحارب مع المشاة في الحرب العالمية الاولى • وعاد ليكتب عن انطباعات الحرب كتابه : « جحيمنا » وعمل بالصحافة ـ وهى خطوة لا مفر من أن يتخذها كل الكتاب الايطاليين على التقريب ـ وقد عنى بالدراسات القديمة • وفى كتابته مزيج موفق بين الصرامة الكلاسيكية وحساسية القرن العشرين •

وذكرياته عن طفولته تكاد تقارب الجو البروستى : « من أبعد أعماق ماضى » ـ ولعلنى لم أكن قد جاوزت الرابعة من عمرى ـ ما زال بوسعى أن أرى ورق الجدار المنقوش برسوم الزهور في غرفة ضيقة دقيقة يفيض عليها النور • وذاكرتى لا تطيق أن تبعد عن ذلك ذاهبة فى الماضى ••

وله دقة في الملاحظة ، ونزعة الى الشاعرية • وقد ظهرت القصة التي نختارها له في مجموعة نشرت منذ سنة ١٩٤٠ •

وهو الى جانب دعابته التى لا ترقى عنها دعابة ، فى قصته هذه ، وسخريته تلك الباسمة التى لا مفر فيها ، يحنو على رجله المسكين وكأنه يربت له على طيبة قلبه ، طيبة جذرية مهما بدا من شقاوته الساذجة الخام ، ويضحك من خوفه من كل مغامرة ، وجريه ليلعق أى فتات يتساقط من مائدة محملة لا يستطيع ـ هو ـ أن يجلس اليها ، بل يقنع بصنوف خاصة به وحده من اللذة ـ بل الغبطة والنشوة ـ فى الفتات الساقط اليه عرضا من وليمة للحياة •

فهل الكظة والشبع والتخمة ، بأمتع ، أو أرقى ، أو الذ ـ ما دمنا فى معرض اللذة الحسية ـ من التقاط ذريات

وهبوات طائرة على طرف لســـان جائع مصوح من الجوع والعطش ـ ومن ثم فهـو مرهف الذوق حتى آخـــر أطراف الحساسية ؟ فإن هذه النتف المتطـــايرة من اللذائذ أيضـا ـ كالاخرى وأكثر ـ لتبعث برعشاتها الشاملة فتنفض كل اوصال الجسم المتوتر المشدود طلبا لها .

مسكين زفيرينو ..

فالقليل ـ بل القليل جدا ـ هنا ، هو كل الوليمة التى لن تشبع شيئا ـ فى النهاية ـ ولن تغنى عن جوع آخر عميق .

زفيرينـو

أنطونيـو بالديني

كان بيلادى زفيرينو باشيوشيولى عزبا فى منتصف العمر ، ولم يكن بالرائق السمة ، ولا بالدميم الخلقة ، وليس هـو بالاسمر ولا بالاشقر ، وليس خجولا هيابا ولاجسورا مقحاما ، وليس محبب العشرة ولا كريه المقام • وأنا أقصد أن أقول أنه كان ينتمي الى تلك الفئة من الناس التى لا يلقى أحـد اليها بالا ، فى خارج نطاق تلك الدائرة المباشرة التى تضم أقرباءه وأصدقاءه • الا أن تلك الدائرة واسعة عريضة جدا ، تشتمل على عدد غير مألوف من أقاربه الاقربين ، كما تشتمل على عدد أكبر ، ان كان ذلك ممكنا ، من أبناء الاعمام والاخوال من الدرجات الاولى ، والثانية ، والثالثة ، رجالا ، ونساء — وهذه الطائفة الاخيرة هى الطائفة الهامة • ولما لم يكن لديه ما يشغله كثيرا طول النهار ، فقد كان الاغلب أن تجده فى بيت أحد أبناء عمومته من الرجال ، أو فى بيت احدى قريباته ، سواء كانت فتاة صبية ، أو عروسا منتظرة ، أو أرملة جذابة • وان كان من المسلم به أنه كان فى الحق يتشوف زيارة هاته القريبات ، على الاغلب ، ولا يذهب فعلا الا فى القليل من الاحوال • فلم يكن يعرف غيرهن من النساء وقصر اهتمامه على بنات عمومته العزيزات • وفى تلك الدائرة كما ذكرت ، كان عليه أن يختار — فى مجال واسع للاختيار — فيجد الفرص السانحة لان يرقبهن وهن يقمن بأعمال البيت أو شغل الابرة أو يقرأن • ولم يكن ليتوانى فى اغتنام الفرصة ، فيتبعهن الى المطبخ ، وهو لا ينى عن الثرثرة ، أو يدير لهن ببطء لفات الصوف على يديه ، بينما يقمن هن بفك اللفة • ويتلبث زفيرينو فى البيت ، يسدى ألف خدمة ، فيقف على الكراسى والموائد ليصلح من الانوار والاجراس

الكهربية ، ويضبط الراديو ، ويبحث لهن عن الارقام فى دليل التليفون ، ويقرأ الاخبار لعماته ، أو التقارير البرلمانية لاعمامه وبعبارة موجزة لم يكن عدد المدافىء التى يدفىء نفسه بها ليقل بأى حال ، عن عشرين مدفأة ، فى عشرين بيتـــا . وكانت صفحات مذكرته قد سودت كلها بتواريخ أعياد الميـــلاد ، وأعياد الاسماء ، واليوابيل الفضية للزواج ، التى يحتفـل بها أقرباؤه جميعا ، نساء ورجالا ، كبارا وصغارا ، ولم تكن لتفوته حفلة تنصير واحدة ، ولا حفلة قربان أولى ، ولا حفلة قران ، ولا جنازة ، بل بسط جناح صداقته لكلابهم ، وقططهم وللكنارى ، والببغاوات ، وكان يخزن فى ذاكـــرته ميزات الخادمات ، ونقائصهن ، فى البيوت التى يتردد عليها ، بعد سنوات عدة من موت الخادمات المذكورات ، أو رحيلهن .

ولكن بنات عمه كن اختصاصه الاول ، ونقطة تفوقه ، أو ينبغي أن أقول ، نقطة ضعفه . وكان يأتيهن حزينا ، صامتا بطريقة مهذبة لطيفة خفية ، مقصودا بها ألا تمس مشـــاعر الخطيب أو الزوج ، ولا تثير فيه غيرة مسرفة غير مأمونة .وعلى ذلك فقد كان يتمتع بامتياز الدخول الى أكثر حرم العائلات قداسة واستعصاء ، دون أن يثير فضيحة ولا استغرابا .فقد كان ليبدو من غير اللائق أن ينكر على هـــذا الخبير بصنوف الطعام والشراب مثلا ، ويألف شىء آخر أيضا ، فرصة اسداء خدماته . بل لم يكن من غير المعتاد ، فى الواقع ، عندما يدخل بيتا أو يخرج منه ، أن يمس يد بنت عمـــه العزيزة ، لحظة أطول مما ينبغى ، أو يقرص خد بنت أخت عزيزة لم يعد من الممكن أن تعتبر طفلة تماما الآن . أما فى الصيف ، عنـدما كن يذهبن أو يجئن من أمامه ، فى فساتين بلا أكمام ، فقد كان يبلغ أحيانا أن يمسك بالذراع العارية ، ويضع اصبعا أو اصبعين على المـرفق ، فى نفس الوقت . وذلك أقصى ما يصل اليه. وفى حالات الازمات العائلية فقط ، والجنازات ، كما سنرى الآن ، كان يستطيع زفيرينو أن يذهب الى أبعد

من ذلك ، ولم يكن ليتوانى أبدا عن الظهور ، اذ تسنح فرصة اللحاق بجمع عائلى حزين • وعنـــدئذ كان ينسل من باب الحزن المفتوح ، كلص ، ليختطف على أطراف أصابع احساساته ان صح التعبـير ، أغمض أنواع المتعات وأرهفها وأخفـاها • ولنأخذ الحوادث الصغيرة التالية مثالا :

كان زوج كونشيتا الشاب قد مات ، وأودع جثمانه التراب وكانت الارملة التى برح بها الحزن ، وند عنها العزاء ، قد سقطت ، بعد أن عادت من الجنازة ، تبكى على مقعد طويل فى البيت • وما زال قناعها الاسود الكثيف مسدولا على وجهها فقبض زفيرينو على احدى يديها ، يهتصرها مشـجعا ، وفك الدبوس عن قبعتها • فأفضى ذلك الى تحرير وجهها من القناع ومكنه من أن يسوى ، برقة بالغة ، شعرها الذى تهدل على صدغيها ، مهوشا على وجهها المتورم من البكاء • ومر بأطراف أصابعه على وجنتيها المندتين بالدموع وهو يدفعها ، بلطف وعزم ، يقنعها بالاضطجاع قليلا على المقعد ، لتممالك قواها • وأمسك بها ، فى ذلك ، من تحت ابطيها ، وهو يبذل جهدا ، ليرفعها على ساقيها اللتين لا تكادان أن تقويان على حملهـا • فدفنت رأسها على صدر ابن عمها ، فى انفجار من الحزن ، وقد استبد بها الاسى حتى لم يعد بمقدورها أن تكبحه •

وقد أصبح مفرق شعر كونشـيتا ، الارملة ، الآن ، فى متناول شفتى زفيرينو ، فكم كان يتحرق ليضعها عليه •

وفى طريقه الى البيت ، بالرغم من الريح التى كانت تصفر فى الشوارع ، تثير التراب وتهز مصابيح الشـارع ، كان زفيرينو ما زال يحتفظ فى أنفه بعبق الشعر الاسود ، والقماش الاسود الجديد ، والازهار الذابلة • وتساءل ، هل انتبهت ؟ وكان هذا السؤال ملحا وكان وعيـه بالعبق المتخلف عنها حادا ، حتى لم يستطع أن يتناول افطاره ، بل شـعر بما يقسره على الذهاب الى كونشيتا • واندفع صاعدا

كالسهم على السلالم ، وقلبه يخفق • ولكن الارملة تلقت تحياته في دهشة وشرود ، فأدرك زفيرينو على الفور ، دون حاجة الى أدلة أخرى ، ان كونشيتا لم تنتبه لشيء • الا أن ذلك لم يقلل من أن ذكراه المتواضعة لتلك اللحظات الاولى العذبة كانت تكفي لتغذية زفيرينو بالنشوة زمنا لا تحديد له وعندما غيرت كونشيتا طريقة تصفيف شعرها ، فلم يعد يستطيع أن يرى الفرق الابيض في وسط شعرها ، أحس بما لم يكن ليقبل أن يسلم به طواعية من الحزن والضيق • حتى ماتت السيدة روزاليتا أم جرازبيلا •

وسرعان ما كان ييمم شطر بيت عمته المسكينة • كانت الفوتوغرافية القديمة • وكان وجهها مختفيا تحت ذراعيها الجامدتين بلا حراك • وكانت تأتي من الغرفة المجاورة تمتمة صلوات ورائحة الشموع • وسحب زفيرينو كرسيا ، دون أن يشعرها بوجوده ، واقترب من جرازبيلا ، ووضع راحة يده على ذلك الظهر الناعم الذي ما زال يرجف بالنشيج ، وقوامها البديع • وشعرت الفتاة التي نال منها الحزن كل منال ، في نهاية الامر ، بمسته • وأدارت وجهها العذب التقاطيع الذي ما زال مبللا بالدموع نحوه ، وألقت بذراعيها حول عنق معزيها ، الذي ظل هناك ، مؤديا واجبه ، في هذا الوضع ، وقد غرقت احدى صفحتي وجهه بدموع اليتيمة • ذلك كان من أروع أيام زفيرينو • وليلتها مرت أمام عينيه المفتوحتين أحلام غريبة • وكانت أفكاره تعود دائما الى نقطة ثابتة ، أكان مما يصدق أن جرازبيلا ، وقد غلبها الحزن على أمرها ، لم تشعر بذراعي ابن خالها ، وقد استدارتا بهما وراحتا تهتصرانها ، لحظة ؟ وعاد صباح اليوم التالي الى بيت جرازبيلا ، ولكن كلماتها الاولى أقنعته بأن الطفلة المسكينة لم تحس اطلاقا بما حدث في اليوم السابق • الا أن زفيرينو استمر مع ذلك يحس بذراعيها حول عنقه ، وبخدها ازاء خده طوال أيام عديدة ، طوال أسابيع • وفي بعض الاحيان لم

يكن بمقدوره أن يجرى صاعدا على سلالم بيتها الا شعر بخفق غرامي فى صدره ٠

وكانت كارميللا تغادر بيتها للمرة الاخيرة ، لتذهب الى الدير ٠ وكان أبواها الحزينان يحيطان بها ، واخوتها وأخواتها يحاولون جميعا أن يكاتموا بدموعهم ، وكان زفيرينو يقف فى وسطهم ، يبدو متحيرا ٠ لكنه ، هو الآخر ، استطاع أن يقبل الراهبة الجديدة ٠ ومن هذه التجربة ، راح يحمل طول الموسم ، ذكرى الطعم الحلو المر المؤلف من الدمع والشمع والرخام ٠ ذلك أيضا كان يوما لا ينسى ٠

وكانت العمة كلوتيلدا عمة خاصة جدا ٠ كانت أصغر بسنتين من ابن أخيها ، اذ كانت قد تزوجت وهى صغيرة جدا بأصغر أعمام زفيرينو ـ وكان رجلا تافها ضحلا قاسيا هجرها فور زواجهما الى حضن امرأة أخرى ٠

ولكنها ظلت برغم هجرانه شابة نضرة بشكل غريب ، لا أحد يدرى كيف ٠ وذهب زفيرينو يوما ليزورها ومعه القائمة الكاملة للارقام الرابحة في اليانصيب ، ليراجع رقم تذكرة عمته عليها ٠ فوجدها شاحبة مضطربة ، وقد نال منها رعب عظيم ٠ كانت قد رأت ، قبل ذلك مباشرة ، ظلا معتما يندفع أمام النافذة المفتوحة على الفناء،وسمعت بالفعل صرخات وأنينا يصعد اليها من الفناء ٠ وأخذت تخبره بالحكاية،وتهزها رجفة ذعر واستبشاع ، من القوة بحيث شحب وجهها مرة أخرى شحوبا مخيفا ، ولولا ذراع ابن أخيها لسقطت على الارض متهاوية ٠ ورفع زفيرينو عمته الى الكنبة ، وانتظر حتى يسكن طائرها وتتمالك جأشها ٠ وكان الوقت صيفا ، وهما وحدهما فى البيت ٠ وأخذ يسوى وسادة خلف رأسها ، ورفع يدها التى كانت متدلية بلا حياة ، فوضعها على صدرها ٠ وأخذ يهوى وجهها المندى بالعرق ، وفك ، بأصابع مضطربة عقدا كان يزين عنقها ٠ ماذا كان بوسعه أن يفعل أيضا ؟

وعندما عادت الى الوعى ، كانت عيناها ، ما تزالان مغمضتين ، وكانت تصعد أنفاسا ثقيلة . وأخذ زفيرينو يناديها باسمها ، بلطف ورقة : كلوتيلدا .. كلوتيلدا ــ بالرغم من أنه لم يكن يناديها ، حتى ذلك الوقت ، الا « عمتى » . ثم أخذ يدعوها تيلدا .. ثم كلوتى .. وأخيرا ركع على ركبتيه ، وأخذ يهتف بها بصوت خافت : تيلدا ، حبيبتى .. وتنهد تنهدة عميقة : يا غرامى .. وبينما كان يدعوها ، على هــــذا النمط ، فتحت عينيها على سعتهما ، وصفعته بيد متراخية ، وهى تؤنبه بمكر ولطف ، وقد عاد الدم فضرج وجنتيها وزاد من جمالها ، وما زالت راقدة . وقالت له : بالاسم ، والفعل أيضا ، مشيرة الى اسمه « باشيو شيولى » الذى يعنى ذلك الذى يحب التقبيـل كثيرا . ألم تكن تلك اللحاظ ، والتلميحات ، الا مما يدخـل فى نطاق علاقة العمة بابن أخيها ، لا أكثر ؟ أخذ هذا السؤال يلح على زفيرينو وقتـا طويلا ، ولم يأت ليزورها ، ولم يقرأ لها قائمة اليانصيب الكاملة ، الا بعد مرور فترة أخــرى من الوقت .

وكان أحد أبناء أعمامه البعيدين ، ليآندرو ، على وشـــك الابحار فى رحلة لليابان ، ليقوم بمهمة تستلزم غيـــابه عن الوطن ، وتستغرق منه بضعة شهور . وكانت زوجته ، وبناته الاربع ، يودعنه . المسكينات حتى اللحظة الاخيرة لم يقوين على قبول فكرة الفراق . كان ذلك مشهدا مؤلما للعائلة والاصدقاء وكان زفيرينو هناك أيضا ، بالطبع . وفى طريقه للرجوع ــ ولم يكن يسكن بعيدا عن بيت ابن عمه ــ وجد نفسه محشورا فى العربة مع بنت عمه ، وبناتها الاربع ، وقد أنساهن الاسى كل شىء ، فلم يشعرن بأنهن يغرقن ابن عمهن العزيز . أما هو ، من ناحيته ، فقد كان سعيدا ، كما لو كان أبا محبوبا ، وقد كاد يختنق تقريبا بين نونزايتينا ، ويولنديناء وفيلومينا ، وبالميرا ، وأمهن التى لم تكن تملك الا أن تهزها العربة ، وتقذف بها هنا وهناك فى الداخل . ودفع زفيرينو أجرة السـائق ،

وسحب السيدات على السلالم ، عاجزا عن أن ينتزع نفسه من بين هذه الوجوه الصغيرة المتورمة بالأسى والألم ، وقد عقد نيته سرا على أن يدخل معهن الى البيت ، ويبقى ليواسيهن الاربع أو الخمس جميعا • ولكن الباب ما كاد ينفتح حتى اندفع جرو أسود صغير ، وهب على ساقيه ، وهو ينبح ويعوى ، كما لو كان يقى البيت الذى غادره سيده فترة من الزمن ، ويذود عنه الغرباء • فسلم عليهن زفيرينو من الباب ، ورجع • وفى تلك الليلة ، حلم بالخمس ، مع حذف الكلب ، فى اختلاط ممتع لذيذ يدعو الى النشوة ، من مشاعر العم وابن العم وصديق العائلة ، ممتزجة كلها بعضها بالبعض • وبعد بضعة أيام ، بحجة سؤاله عن أخبار ليآندرو ــ بالرغم من أنه كان يستحيل أن تكون قد وصلت ثم أخبار فى هذه الفترة القليلة ــ عاد الى البيت ، واندفع على السلالم ثانية ، وفى يده علبة حلوى وباقة زهر • وكان على وشك أن يدق الجرس ، الا أن الكلب اللعين ، خلف الباب المقفل ، أخذ ينبح بغضب وثورة ، حتى كف زفيرينو ، ووقف ساكنا بلا حراك ، يده مرفوعة متصلبة • ثم نزل بهدوء على أطراف أصابعه •

مسكين زفيرينو باتشيو شبولى ــ كم كان ليرضى ، فى تلك المناسبة ، كشأنه دائما • بالقليل جدا •••

ماسيمو بونتيمبيلي :

ولد في كومو سنة ١٨٧٨ ، وبدأ حياته مدرسا بالمدارس الثانوية ، حتى سنة ١٩١٠ . ثم عين رئيسا للتحرير في صحيفتين متعاقبتين ، وأسس مجلته الخاصه « ٩٠٠ » . وقد شغل بالحركة السيريالية حينا ، وكتب شعرا وقصصا قصيرة وروايات وكوميديات ومهازل ، بل ألف الموسيقى أيضا .

وفي قصصه أحيانا حساسية تكاد تشفى على الحساسية الانثوية ، واحساس بالاجواء والمشاعر الريفية - كما هو الشأن في «الديك» ، يكاد يذكر المرء بالكاتب الانجليزي ه. أ. بيتس

و « الديك » ، على صغرها ، وتفاهة شأنها فيما يبدو لقارىء غير صاح ، قصة موحية ، غنيـــة . وليس الديك الا عنصرا أوليا بدائيا ، في كبريائه وزهوه وابائه ، من العناصر الوثيقة الصلبة بجذور الحياة ، والارض . وقد انتقل فجأة الى شقة ضيقة في المدينة ، وحبس بين جدران صماء نظيفة ، على بلاط ممسوح ، مربوطا بقطعة من الدوبارة . لكنه يقلق أولئـــك الناس من أهل المدينة ، ويشعرهم باثم غامض يشيع في طراز حياتهم ، وعليهم أن يكفروا عنه . والخادمة الريفية لا تدرك من الازمة المستخفية الا أخلاقية ساذجة صارمة هي أخلاقيــة الريف التي لا تتبع الا خطا واحدا مرسوما للسلوك . ولكن نزعة بدائية عميقة وغامضة في نفوس بسيطة متحضرة، تتغلب على الحل التقليدي ، وتعيد تأكيد قيم أساسية . وتطلق سراح العنصر الأبي

« الديك »

(ماسيمو بونتيمبيلى)

كان لوشيانو ـ الذى يعيش فى الريف ـ قد أرسل الى أصدقائه ديكا صغيرا على سبيل الهدية ٠ وكان هؤلاء الاصدقاء ـ الجد ، والأم ، وساندرينو ، يجلسون الى المائدة ، وعندما وصل الديك ٠ فظهرت دولوريس عند باب غرفة الطعام، وقد تضرج وجهها من الانفعال ، وأعلنت النبأ بصوت مرتفع ٠ فهب ثلاثتهم عندئذ ، وجروا الى المطبـــخ ليروه ٠ وكان الديك قد احتمى تحت حوض المطبخ ، ووقف هناك منتصب القـــامة ، لا حراك به الا فيما يتعلق بعنقه ومنقاره الذى كان يطعن به ، فى تشنج ، فى اتجاه الكائنات الانسانية التى وقفت متزاحمة بالباب ، تراقبه فى صمت ، مفتتنة به ٠

حتى دولوريس لم تقل شيئا ، لكنها لم تكن خائفة ٠ وكانت تبتسم ابتسامة راضية ، فقد شعرت أنها عادت الى الريف مرة أخرى ٠ وكان ثم شىء تريد أن تعبر عنه ، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات ٠ وكان خوف سادتها يبدو لها مضحكا داعيـــا للسخرية ٠ ثم قال الجد فى النهاية :

ـ ده ديك ، اسمه باللاتينى « جالاس كريستاس »

فقطع ذلك السحر ، وأطلق ساندرينو صرخـــة كصرخة المحاربين ، وهم بأن يندفع نحو الديك ، لكن الديك قفز فجأة فأمسكته أمه ، صائحة ، من كتفه ، وجرته الى الخلف ٠

ثم عبرت دولوريس المطبخ ضاحكة ، واتجهت الى الحوض مباشرة ، وانحنت على العدو ، وأمسكته بمهارة من رجليه ، ورفعته عاليا ، منتصرة ظافرة ٠ وتدلى الديك منقلبا رأسا على عقب ، وهز عنقه المغطى بالريش المتهيج، تعلوه عينان مدورتان

كأنهما حصاتان • وسألتهم دولوريس ، مشرقة الوجه •

ـ ندبحه دلوجت ؟

فسرت رجفة فى الاشخاص الثلاثة المزدحمين بالبـــاب • واكتشفت الام فجأة سببا وجيها لتفثأ به حماس دولوريس :

ـ لا • نستنى لما بابا ييجى • حيرجع بكره الصبح •

وهتف الجد ، وساندرينو معا :

ـ أيوه • • أيوه •

فقالت دولوريس :

ـ طيب ، بكره يجى • أول ما سيدى يشوفه نبجى ندبحه ، ونعمل منه عشوة يوم الحد •

وأسرعت قائلة :

ـ ونحطه فين لغاية الصبح ؟

وبعد أن طرحت اقتراحات شتى على بساط البحث ، انعقد الاتفاق على اقتراح دولوريس بأن يوضع فى البلكونة الصغيرة الواقعة فى نهاية الممر • ومن ثم أخذته ، وربطت دوبارة باحدى رجليه ، وقال ساندرينو موصيا :

ـ طولى الدوبارة أحسن ، عشان ماتبقاش ثقيلة عليه •

ورجع الى المطبخ •

وبقى الاخرون قليلا ، يراقبون الديك الرائع ، من النافذة • كان قد اتخذ مركزه فى وسط البلكــونة ، ووقف بلا حراك ، زاهيا شامخا ، كما لو كان مركز الكون •

كانت فكرة غريبة من لوشيابو أن يرسل هـذا الديك الى

ليشكروه ، وعلى ذلك مضت الأم لتكتب الخطـاب ، وذهب
ليشكروه ، وعلى ذلك مضت الام لتكتب لخطـاب ، وذهب
ساندرينو ليذاكر دروسه ، ومضى الجد الى سريره • وما كادت ربع ساعة تمضى ، حتى كان ساندرينو ، على أطراف قدميه ، فى الممر ، ليلقى نظرة على البلكونة • وما ان وصل هناك حتى سمع حفيفا ، واستدار • كانت أمه قد جاءت ، بنفس الفكرة •

ـ ودروسك يا شقى ؟

ـ وانت يا ماما ، الجواب ؟

ورجع كل منهما ضاحكا الى مهمته ، فلاحظا باب غرفةالنوم ينفتح عن الجد • وما ان حان وقت العشاء حتى كانوا فى غير حاجه للتعلل بالاعذار ، ليتزاحموا فى الباب ، ويحدقوا الى ضيفهم •

كان الديك يخطر متبخترا الان ، مشدود القامة ، وفى عينيه نظرة شريرة • واستحالت البلكونة الصغيرة ، فيما يبـدو ، الى مقصورة خاصة به • وكانت دولوريس قد وضعت فى ركن منها طبقا به طعام • لكن الديك لم يمسه •

وبدأ الجد يتكلم :

ـ الديك من أقل الحيوانات ذكاء •

فقال ساندرينو :

ـ باين عليه مبسوط من نفسه جدا •

وتنهدت الام فى شكوى ، وقالت :

ـ تصوروا انه امبارح بس كان حر ، فى الفلاحين ، فى وسط فراخه •

ووصلت دولوريس فجأة ، وما كادت تسمع كلمة « فراخ » حتى انفجرت بالبكاء •

ـ مالك ، جرى ايه ؟

فأجابت البنت من بين دموعها :

ـ ولا حاجة يا ستي ، ما فيش ـ مافيش حاجة ٠

وكانت فى الواقع قد كفت عن البكاء ، ودعكت عينيها بسرعة بظهر يديها ، وسألت :

ـ ندبحه بالسكينة ، ولا نجطم رجبته ؟

وفى عينيها ومضة ٠

فقالت سيدتها بسرعة :

ـ ما احنا اتفقنا على بكرة خلاص ٠

وواصل الديك خطـــوه فى البلكونة ، بصمت وجلال ، ولم يلق لسجانيه بنظرة ٠ وكانت الشمس تغرب الان ، فتكسب ريشه الخلفى صبغة بنفسجية ضاربة للاحمـــرار ٠ وفتحت دولوريس باب البلكونة ٠ وما أن سمع الديك الصوت حتى استدار ٠ وكانت أشعة الشمس تمس الان عرفه وغببه ٠ وكان يتبختر فى كبر ، وريش ذيله يضرب الهواء ، وصدره منتفخ بالغضب المكتوم ٠ فقالت الام :

ـ مش معقول انه كان كتكوت فى يوم من الايام ، كتكوت أصفر صغير ٠

فقال الجد :

ـ أدخل الديك من الصين الى أوروبا ، قبل المسيح بعشرة قرون ٠

وتمتمت الام :

ـ ساندرينو ، فيه حاجة شاغلاك ؟

فأجاب الولد :

أصله لازم زعلان جدا ٠

وفجأة قفز الديك قفزة واحدة رشيقة ، ونط الى مقعد خشبى فى الركن ٠

وهتفت دولوريس : الله ٠ وقد فزعت ، واندفعت الى الامام لتخبط الديك فتنزله من على الكرسى ، وتبعد الكرسى من قاعدة النافذة ٠ وقالت على سبيل التفسير :

ـ ينط كمان على الشباك ، ويمرج على طول ٠

وكانت محقة ، فقد كانت النافذة على مقربة من مستوى الارض ، وكان يوجد تحت البلكونة تماما أرض صغيرة غير مزروعة ، تفضى الى الشارع ٠

ـ كويس اننى وصلت دلوجت ٠ لو ما بعدت الكرسى من هناك ، كان مرج بالليل ٠

وحدق الديك الى دولوريس ، بعين واحدة أولا ، ثم بالعين الاخرى ٠ وكان يبدو أنه لا ينظر اليها بانسان العين ، بل بالبقعة البيضاء تحت محجرها ٠

وكانت الظلال قد طالت على الشرفة ، بعد ساعة أو ساعتين، ولم يكن الديك قد نقر فى شىء على الاطلاق ، من الطعام المجهز فى الطبق ، ولو على سبيل التجربة ٠

ـ حياكل الليلة ؟

ـ وهو عارف انه حياكل آخر مرة فى حياته ؟

وتعشوا فى صمت جميعا ، ومضوا الى الفراش بسرعة ٠

والتأم شمل العائلة في الساعة السابعة من صباح اليوم

التالى بالضبط • ككل صباح اخر • « صباح الخير » • « صباح الخير » • « صباح الخيْر » كانوا جميعا يتجنبون أعين بعضهم البعض • كان ذلك ، على الاقل ، واضحا • وكانت الام تجهز الفطور دائما ، لان دولوريس كانت تذهب فى هذا الوقت الى السوق • ويبدو أن صنع القهوة باللبن كان يستغرق اليوم اهتمام الام ، أكثر من المعتاد ، لسبب غامض • وأغرب من ذلك أن أحدا من الثلاثة لم يخطر له أن يذهب ليقول للديك صباح الخير ، ولم ينبس أحدهم بكلمة • وفى أثناء ذلك كانت دولوريس قد رجعت ، مبهورة الانفاس ، بسلتها ، من السوق• فقالت بصوت مرتفع من بعيد :

ـ أنا رحت السوج جوام ، وما شفتش حتى اذا كان أكل حاجة • عشان لازم ندبحه من غير الحوصلة ما تكون مليانة • امتى سيدى حاييجى ؟

. ولم تنتظر اجابة ، بل اندفعت كالسهم • ولكن ساندرينو قام عن قهوته ، ولم يكملها بعد ، قائلا :

ـ لازم أروح طيران ، بعدين أتأخر عالمدرسة •

ومضى ، وصفق الباب خلفه ، بينما كان الجد يتمتم :

ـ الله • انا نسيت نضارتى •

وجرى الى غرفة نومه •

وأخذت الام ، فى بطء مقصود متعمد ، تعـــد الاكواب المصفوفة فى الدولاب • وكانت حادة السمع جدا • وبينما هى تعد ، كانت تسمع كل خطوة من خطوات دولوريس فى الممر ، وصوت السلة يقذف بها على الكرسى ، وخطوتين آخريتين ، ثم الباب • كانت دولوريس تفتح باب البلكونة • لحظة وجيزة من الصمت التام بعد هذه الاصوات الدقيقة ، ثم صرخة ثاقبة من دولوريس عبر الفسحة • وهي تنادي :

ـ ستى • ستى •

وفى ثانية ، كانت قد عادت ، وقبضت على سيدتهـــا من ذراعها ، وجرتها جرا الى نهاية الممر ، أمام النافذة المفتوحة • وأشارت الى البلكونة الخاوية ، والدوبارة المقطوعة ، وقاعدة النافذة •

ـ هرب • مرج • جطع الدوبارة • ماكنتش عايزه •• آ آه •

وتنهدت ، واطلقت صرخة أخرى مروعة ، واندفعت لتفحص طرف الدوبارة الذى كان يتدلى من مسمار حديدى ، بتدقيــق أكثر •

ـ لكن طرف الدوبارة مش متاكل ولا مفرول • دا مجطوع نضيف بالسكينة ، ولا مجص • مين جطعه دلوجت •• مش آنى •

وأبعدت السيدة يدها بلطف عن ذراعها ، وتظاهرت بأنها تصغى اليها ، وقالت :

ـ لحظة واحدة • أونكل بينادينى •

وجرت الى هذا الاخير ، فى غرفة نومه ، ودخلت ، وأغلقت الباب خلفها •

ووجدت دولوريس نفسها وحيدة ، بالقرب من النـــافذة المفتوحة ، فى البلكونة المهجورة ، أمام الدوبارة المقطوعة • وأحست نفسها وحدها فى العالم الفسيح الملىء باناس غرباء ، وأشياء غريبة لا تفهمها • وكانت خائفة كما لو كانت قد رأت جدران البيت تنهار وتنقض الى الارض • وانفجرت باكية كما لو كان كل أفراد عائلتها التى تعيش فى الريف ، قد ماتوا فجأة جميعا •

أرنالدو فراتيلى : ـ

ولد فى سنة ١٨٨٨ واشتغل بالتدريس فى مدرسة ثانوية ، ثم انتقل ـ كالمعتاد ـ الى الصحافة والنقد • وقد ظهرت قصته التى نختارها له فى مجموعة قصص ظهرت فى سنة ١٩٣٤ • وكتب روايات أثارت الاهتمام ، عالج فى احداها مصير « المرأة ساقطة » ما تزال تنشد الحب الحقيقى فتخطئه ، حتى اذا وجدته اقتحم الموت مسرحها •

وفى عمله حس قوى بالسخرية المـــريرة • و « مغامرة فى الليل » بالرغم من جنوحها نحو « العاطفية » ـ وتلك فيمـــا نحسب سمة من سمات المزاج الايطالى البارزة ، بانفعـــاله السهل وطيرانه نحو الاغراق والمغالاة ، بل بلغته الموسيقية المجنحة المغموسة بالاستعارة والتورية والتشبيه ـ الا أن القصة مع ذلك تقع على أزمة لها اصالتها ، واحساس بالفقد لا تعويض له ، والقسوة الصخرية التى ينكشف عنها وجه الحياة ، أحيانا، كأنها الجمود الحجرى العتيق الذى يرين على جبل « الاقصر » فى صعيد مصر ، بما فيه من قبور قديمة منقورة ، وفاغرة ، ما تزال موحية بأمجاد كأنها امجاد حب مفقود • والولائم الملونة المنقوشة على الجدران فى قلب الجبـــل تثير فى قلب الغريب المحروم المكظوم ، شهوة للحياة كادت أن تخبو ، لكنه يصحو فاذا هى رسوم جامدة ، اقنعة لا دم فيها ، وقد سخرت منه ، وخدعته ، لكنها أيقظته وردته للحياة ، مثقلا بالحبوط ، صحيح ، ولكنه مع ذلك مردود الى الحياة •

صدر في ١٧ سبتمبر (أيلول) سنة ١٩٥٩



الكتاب السادس عشر — الثمن ٥ قروش

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٢ شارع طلعت حرب — القاهرة